

## مفهوم التصديق والهيمنة في القرآن الكريم



د. نعيمة لداوي

فَأَقْصِرْ

بهدى ولا يباع



# مفهوم التصديق والهيمنة في القرآن الكريم

د. نعيمة لبدوي

الإخراج الفني: محمود محمد أبو الفضل

## د. نعيمة لبدراوي:

من مواليد المغرب، حاصلة على دبلوم الدراسات العليا وشهادة الدكتوراه في الفكر والحضارة الإسلامية من جامعة المولى سليمان ببني ملال بالمغرب، تعمل رئيسة لتحرير مجلة «الترتيل» الصادرة عن مركز الدراسات القرآنية بالرابطة المحمدية للعلماء.

من مؤلفاتها: «مفهوم القراءة في القرآن الكريم»، إضافة إلى العديد من الدراسات والأبحاث بالمجلات العربية.



نهر متعدد... متجدد

مشروع فكري وثقافي وأدبي يهدف إلى الإسهام النوعي في إثراء المحيط الفكري والأدبي والثقافي بإصدارات دورية وبرامج تدريبية وفق رؤية وسطية تدرك الواقع وتستشرف المستقبل.



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

إدارة الثقافة الإسلامية

ص.ب: 13 الصفاة - رمز بريدي: 13001 دولة الكويت

الهاتف: (+965) 22487310 - فاكس: (+965) 22445465

نقال: (+965) 99255322

البريد الإلكتروني: rawafed@islam.gov.kw

موقع «روافد»: www.islam.gov.kw/rawafed

تم طبع هذا الكتاب في هذه السلسلة للمرة الأولى،  
ولا يجوز إعادة طبعه أو طبع أجزاء منه بأية وسيلة إلكترونية أو غير  
ذلك إلا بعد الحصول على موافقة خطية من الناشر

الطبعة الأولى - دولة الكويت

أبريل 2014 م / جمادى الأولى 1435 هـ

الآراء المنشورة في هذه السلسلة لا تعبر بالضرورة عن رأي الوزارة

كافة الحقوق محفوظة للناشر

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الموقع الإلكتروني: [www.islam.gov.kw](http://www.islam.gov.kw)

رقم الإيداع بمركز المعلومات: 2013/164

تم الحفظ والتسجيل بمكتبة الكويت الوطنية

رقم الإيداع: 454 / 2013

ردمك: 978-99966-54-15-2

## فهرس المحتويات

- ٩ ..... تصدير
- ١١ ..... مقدمة
- ١٩ ..... مدخل: مفاهيم المنظومة الدينية وضرورة البناء
- الباب الأول
- ٣٥ ..... المحددات الدلالية والمفهومية للتصديق والهيمنة في القرآن الكريم
- ٣٩ ..... الفصل الأول: المحددات الدلالية والمفهومية للتصديق في القرآن الكريم
- ٤١ ..... المبحث الأول: الدلالات اللغوية والاصطلاحية للتصديق
- ٥٢ ..... المبحث الثاني: مدار التصديق في القرآن الكريم.
- ٦١ ..... المبحث الثالث: أقسام التصديق.
- ٦٧ ..... المبحث الرابع: تجليات التصديق في القرآن الكريم ومظاهره
- ٩٩ ..... الفصل الثاني: المحددات الدلالية والمفهومية للهيمنة في القرآن الكريم
- ١٠١ ..... المبحث الأول: الهيمنة في المعاجم اللغوية والاصطلاحية
- ١٠٥ ..... المبحث الثاني: الهيمنة في اصطلاح المفسرين
- ١٠٨ ..... المبحث الثالث: المحددات المفهومية للهيمنة في القرآن الكريم
- ١٣٦ ..... خاتمة الباب

## الباب الثاني

- ١٣١ ..... الحوار الديني والتعارف الحضاري من خلال مفهومي التصديق والهيمنة
- ١٣٥ ..... الفصل الأول: الحوار الديني من خلال مفهومي التصديق والهيمنة
- ١٣٨ ..... المبحث الأول: مفهوم الحوار الديني
- ١٤٤ ..... المبحث الثاني: منطلقات الحوار الديني
- ١٥٣ ..... المبحث الثالث: واقع الحوار الديني وأفاقه
- ١٦٥ ..... الفصل الثاني: التعارف الحضاري من خلال مفهومي التصديق والهيمنة
- ١٦٩ ..... المبحث الأول: مفهوم التعارف الحضاري
- ١٨٥ ..... المبحث الثاني: منطلقات ومداخل وغايات التعارف الحضاري
- ١٩٨ ..... الخاتمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ







## تصدير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

كثيرة هي المفاهيم والمصطلحات القرآنية التي تحتاج إلى إعادة دراسة وتأمل لاستخلاص معانيها الأصيلة في ضوء هدايات القرآن ومقاصده، ولعل مفهومي «التصديق» و«الهيمنة» يظان في حاجة إلى هذه المهمة لاعتبارات تتصل بمحوريتهما وقدرتهما على وضوح الرؤية في العديد من التجاذبات والمواقف والآراء في ظل التحولات الدولية التي ترافق النهضة الإسلامية الحديثة.

وقد سعت الباحثة نعيمة ليداوي إلى أن تقدم، بالاستناد إلى أبجديات التفسير الموضوعي المتجاوز للتجزئ والتبعيض، خريطة مفاهيمية للتصديق والهيمنة، تتضح فيها الأبعاد اللغوية والاصطلاحية والسياقة لهما في الاستعمال القرآني، وتتكشف العلاقة التراتبية بينهما في موقف القرآن الكريم من الأديان والنبوات والكتب السماوية السابقة عن رسالة الختم، وتقدم منهجا في التعامل مع الموضوعات المعاصرة المتصلة بقضيتي «حوار الأديان» و«حوار الحضارات»، وموقف المسلمين وموقعهم من ذلك من خلال الرؤية البنائية النسقية للقرآن الكريم.

ويسر إدارة الثقافة الإسلامية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت أن تقدم هذا الكتاب إلى المهتمين بحقل التفسير والحوار الحضاري وجمهور القراء الكرام... داعية المولى عز وجل أن ينفع به، ويجزي مؤلفته خير الجزاء.

إنه سميع مجيب.



مقرنة





الحمد لله الذي جعل من الملائكة والناس رسلا، وأنزل الكتاب لمن أراد أن يهتدي من أولي الألباب، والصلاة والسلام على من جاء بالحق وصدق المرسلين، وجعله الله رحمة للعالمين، وهداية لكافة الأنام إلى سبل السلام، وعلى آله وصحبه الكرام عدد الليالي والأيام.

البحث في محددات كتاب الله عز وجل «القرآن المجيد» لا يمكن إلا من داخله، وذلك حتى في علاقته بغيره، لسبب مسلم به. عند المؤمنين به والمنصفين لحقيقته. وهو أنه النص الوحيد المحفوظ من التحريف والتبديل، والذي لم تطله يد التغيير والزيادة والنقصان بحفظ الله الواحد الأحد. ثم لأن القرآن المجيد لا يقبل القول عنه بل هو يقول عن نفسه وعن كل شيء، كما أنه لا يقبل أن تتخذ آياته وسوره شواهد لآراء وأفكار وإيديولوجيات نسجت خارجه.

ومن المحددات القرآنية، ما يحدد علاقته بالذي بين يديه من الكتاب أي ما سلف من الرسالات، وكذا علاقة حاملي هذه الرسالات ومبليغيها (رسل الله وأنبيائه) فيما بينهم، ومن ثمة علاقة أتباع هذه الرسالات فيما بينهم عبر الزمان والمكان وما يوحدهم وما يفرقهم وفيما يختلفون. ذلك هو شأن مفهومي التصديق والهيمنة المبينين لماهية هذه العلاقات جميعا وتجلياتها.

وبين يدي التعامل مع القرآن الكريم، يجب على الباحث أن يجتنب آفتين خطيرتين هما؛ الانتقائية والتحيز، ثم التعضية والتجزئي. ثم هناك آفة أخطر من سابقتها وهي اتخاذ آيات القرآن الكريم وأجزائه شواهد لآراء وأفكار وإيديولوجيات نسجت خارج القرآن الكريم.

من أجل ذلك اخترت في هذا البحث الاستفادة من مناهج تجنبني. قدر المستطاع. السقوط فيما ذكر سالفا، فوقع الاختيار على منهجي الدراسة المصطلحية والمنهج الدلالي وذلك لاستجابتهما لوحدة النظام والبناء

القرآني، ثم إنهما يقيدان الباحث بالاشتغال داخل النص المدروس كما يسعفانه في الاستعانة بوسائل خارج النص لفهم ما استشكل داخله وما انفرد به وما وافق فيه وأضاف إليه وما خالف فيه.

فكانت منهجية البحث تبعا لذلك مقسمة إلى مرحلتين كبيرتين؛ مرحلة تبين واستقراء، ثم مرحلة بيان واستنباط. فاقتضت خطة البحث تبعا لذلك تقسيمه إلى بابين، ومقدمة، ومدخل، وخاتمة:

رمت في المقدمة محاولة وضع الدراسة في سياقها العام من خلال الحديث عن الواقع البشري العالمي وأزماته وضرورة التفكير الجمعي للحد من هذه الأزمات. وكذا بيان موضوع البحث، ودوافع اختياره، ومنهجه وخطته، وما واجهني فيه من صعوبات. أما المدخل فقد تحدثت فيه عن أزمة المفاهيم الدينية وضرورة إعادة بنائها والرجوع بها إلى أصولها للحيلولة دون تمييعها وغموضها، باعتبار أن الدين موجه لحركة الإنسان وسلوكه، وأن أي خلل في مفاهيمه يؤدي حتما إلى الخلل في حركة الإنسان وتصورات، وتوقيعه الحضاري.

وقد خصص الباب الأول لدراسة مفهومي التصديق والهيمنة، فجاء في فصلين، خصص الفصل الأول لدراسة الدلالات اللغوية والاصطلاحية لمفهوم التصديق، وذلك عبر تتبعه في المعاجم اللغوية والاصطلاحية وكذا في أقوال المفسرين. وثم دراسة المحددات المفهومية للتصديق في القرآن الكريم، أما الفصل الثاني فقد خصص لدراسة المحددات الدلالية والمفهومية للهيمنة في القرآن الكريم. وذلك من خلال مواقع ورود كل من التصديق والهيمنة في القرآن الكريم وتجلية خصائصهما وحمولتهما المفهومية.

أما الباب الثاني فقد جاء في فصلين، باعتباره نتيجة أو خلاصة لما تم التوصل إليه من نتائج أثناء دراسة مفهومي التصديق والهيمنة في الباب الأول، فخصص الفصل الأول لقضية الحوار الديني وما يقدمه مفهوما

التصديق والهيمنة من منطلقات في هذا المجال، بيد أن الفصل الثاني لقضية التعارف الحضاري على القواعد والمنطلقات المشتركة التي يقدمها مفهوما التصديق والهيمنة، وكذا أهمية هذا المفهوم «التعارف الحضاري» في الوقت الراهن وما يقدمه للبشرية من مخرج في كثير من الأزمات.

والله يقول الحق وهو يهدي سواء السبيل







مدخل:

مفاهيم المنظومة الدينية

وضروية البناء



يمكن لمفهومي التصديق والهيمنة، أن يقدموا للبشرية أصولاً مشتركة تلملم شتات الإنسانية دينياً وحضارياً. لكن ما الدين وما الكتاب وما الإيمان؟ وما الرسالة وما الرسول؟ هذه المفاهيم المشكلة للمنظومة الدينية، هل فهم الناس لها واحداً؟ هل يفهمها الناس من أصولها؟ أم تدخلت في فهمها أمور أخرى؟

فمفتاح الوصول إلى ما اشترك من الأصول في الرسائل التوحيدية، هو المفاهيم الدينية. ومن أوجب ما يجب حراسته، والحيلولة دون أن يتسرب إليه الخلل لوأداً، هو هذه المفاهيم الدينية. وذلك باعتبار الدين مجموعة مفاهيم، ثم باعتباره موجهاً لحركة الإنسان ومسداً لها، وضابطاً لعلاقات الإنسان بذاته وبغيره، وبالعالم الغيب والشهادة. وأي خلل في مفاهيم الدين يؤدي حتماً إلى الخلل في حركة الإنسان وممارساته الدينية وتوقيعاته الحضارية. فلقد «كانت دائرة المفاهيم أهم ميادين الصراع الفكري والثقافي بين الثقافات عبر التاريخ وستظل كذلك...»

وأول ما تصاب به الأمم في أطوار تراجعها الفكري والمعرفي والثقافي، مفاهيمها؛ وأول ما يتأثر بعمليات الصراع الفكري والثقافي، مفاهيمها كذلك. وأهم الأمراض التي تعترى المفاهيم، الميوعة ثم الغموض: فالميوعة تنشأ عن تساهل الأمة في مفاهيمها... وقد تتناسى الأمة خصوصياتها المعرفية وتخلط بين ما هو مشترك إنساني، كالعقليات والطبيعات والتجريبيات، وما هو من الخصوصية الملية، فتتساهل باستعارة المفاهيم من غيرها، حتى تفقد خصوصياتها الملية والشرعية والمنهاجية المتعلقة بها؛ فتدخل مفاهيمها دائرة الغموض والارتباك، فتتعدد الكلمات التي تستعمل للتعبير عن مضامين ومعانٍ واحدة في ظاهر الأمر، وما هي بواحدة في الحقيقة والواقع<sup>(١)</sup>.

١- طه جابر العلواني، من تقديم كتاب «بناء المفاهيم دراسة معرفية ونماذج تطبيقية»، إشراف علي جمعة محمد وسيف الدين عبد الفتاح اسماعيل، ج ١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة المفاهيم والمصطلحات، ٤، ط ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص ٨.

ومن أجل توحيد أصول الدين وضبطها، نجد القرآن الكريم تولى بناء مجموعة من المفاهيم الرئيسية التي تشكل منظومة الدين (الله، النبوة، الرسالة، التوحيد، الشرك، الإيمان، الإسلام، الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج، الدنيا، الآخرة، الجنة، النار، الجزاء، العقاب، الغيب، الشهادة...) وعلمها الله تعالى رسله وأنبياءه منذ آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام، وأمرهم بتبليغها وبيانها للناس. ولو تركت هذه المفاهيم إلى الناس لحصل فيها تشاكس كبير، واضطراب وتمييع خطيران، وهو ما حصل بالفعل عبر التاريخ لما ابتعدت البشرية عن وحي ربها، وبدلت فيه ما بدلت، وحرفت ما حرفت، فرأينا كيف شوه مفهوم الله/الإله، فكل يدعي أنه يؤمن بالإله الواحد لكن مفهوم الإله الواحد ليس واحدا عندهم، وفهمهم لهذا الإله يختلف كثيرا إلى حد يصعب معه القول بأنهم يتكلمون عن الإله نفسه، وما يقال عن مفهوم الإله يقال عن مفهوم النبي أو الرسول، وعن مفهوم الرسالة التي اختلط فيها الوحي بكلام البشر وتأملاته، وكذا مفهوم كثير من العبادات كالصلاة والصوم والحج وغيرها.

بل إن مفهوم الدين نفسه شهد اضطرابا وغموضا والتباسا، فبعد أن كان الدين «التوحيدي» يتشكل من الوحي ومن تطبيقات رسل الله لهذا الوحي، أصبح اليوم يتشكل من التراث والثقافة والعادات والتقاليد، كما صار الدين مرادفا للملة والشريعة، ويضاف إلى ذلك أن الدين بات يوضع في مقابل العلم والتقدم والتطور والازدهار، ورديفا للتخلف والجمود والإرهاب، بالإضافة إلى هذا كله أفرغ الدين من محتواه، وأصبح عبارة عن طقوس، وفي أحسن الأحوال ورقة سياسية احتياطية.

وهذا ما يسوغ القول بأن هناك خلافا مفهوميا لدى الناس اليوم في المنظومة الدينية ككل، مما بات يستدعي إعادة بناء مفاهيم هذه المنظومة الدينية، ولا مفر في هذا البناء من العودة إلى الوحي الإلهي

في شموليته وفي إطار وحدته البنائية، ونظامه المتكامل. إذ لا يمكن فهم كلام الله عز وجل خارج هذا النظام، وذلك لأن النظام يرد الأمور إلى الوحدة ويمنع تشاكس المعاني. فكما أن كل مركبات الكون لا يمكن الدخول إليها ومعرفة كنهها، إلا بعد معرفة نظامها، فكذلك الأمر بالنسبة لمن أراد أن يمس مكنون كلام الله عز وجل، ويدرك كنهه.

وعن جوهرية النظام والتركيب في الأشياء، يقول الإمام الفراهي رحمه الله عليه: «أسرح النظر في جميع ما حولك وفوقك وتحتك من الكائنات تجدها مركبات ومصنوعات للانتفاع والتمتع، وتجد للتركيب حظا عظيما في منافعها ومحاسنها، بل لو شئت قلت إن التركيبي هو أصل ماهية كل شيء وحقيقة وجوده، فك عنه التركيبي، ينقلب كأنه لا شيء. ولذلك ليست الصناعة وكمالها إلا في صحة التركيبي، وإنما يمدح الصانع أو يعاب حسب إتقان التركيبي أو ضعفه وكذلك كل عمل وتدبير إنما ينجح أو يخسر من جهة تركيبه، فهذا أصل راسخ لا يخفى على أولي النهى.

فإن تبين ذلك، التفت إلى موضع التركيبي في الكلام، فإنه شيء مؤلف ركب بعضه ببعض، ولم يصر ذا معنى إلا بعد تركيبه، فإنما هي الصورة التركيبية ما دل على معناه. ألا ترى ذلك عينا في اللفظة الواحدة، فإنما صارت كلمة ذات معنى بما وضعت حروفها على ترتيب خاص؟ وكذلك الحال لتركيبي الكلمات في جملة، فإنها لم تصر ذات معنى خاص إلا بما وضعت كلماتها على تركيب مخصوص. وهكذا الأمر في تركيب الجملات حتى تصير كلاما حسنا، أو حديثا عجبا، أو حجة دامغة، أو حكمة بالغة مشتملة على فنون البلاغة وأطراف البراعة.

ولا شك أن تركيب الكلمة بالكلمة يفيد معنى، ولكن أين ذلك من معنى يعطيك تركيب الجملة بالجملة، وكذلك مجموع من الجمل يتضمن تأليفا آخر، له دلالة على ما لا يدل عليه أجزاء هذا التأليف من حيث الانفراد،

فلا شك أن الكلام إنما هو بنظامه، فإنه يحسن أو يبلغ أقصى البلاغة، لا بمحض أجزائه بل بنظامه وترتيبه على ما ينبغي...»<sup>(١)</sup>.

كما أن الدليل على أن القرآن كلام الله «هو القرآن نفسه في نظامه الداخلى المحكم. فإعجازه ليس كإعجاز عصا موسى ﷺ، بل هو كلام منظم بصرامة ودقة تفوقان ما في الكائنات. وهو حيوي ومترايط بمثل ما في الكائنات من نظام وحيوية. فإعجازه في داخله وبرهانه في ذاته. ولكن الإعجاز لا يمكن كشفه إلا بشرطين: الأول؛ الخضوع لهذا النظام بكل ما في هذه العبارة من معان، والشرط الثاني؛ التدبر لمعرفة هذا النظام»<sup>(٢)</sup>.

وعليه فإنه لبناء أي مفهوم قرءاني وجب مراعاة ما يلي:

#### - خصائص الخطاب القرآني:

القرآن الكريم ليس قراطيس من النصوص، يستقل بحفظها فريق من الناس ويجهلها الآخرون، بل هو خطاب مفتوح مستوعب حي، حيوية من شأنها أن تجعل السامع المنصت يقف موقف الحيرة والانبهار، وتتملكه مشاعر الخشوع والامتثال وهو يتساءل «أليس هذا التنزيل قد سمعته الآن جديدا وليد يومه»<sup>٥</sup>.

فالقرآن الكريم ليس تجميعا لنصوص محفوظة، وإنما هو «جمع آيات التهمت عبر لحظات متدافعة في مواقع متجددة وبأغراض توجيهية معلومة سواء كان هذا التوجيه بالإعمال أو الإبطال، بالدعم والتثبيت أو بالتقويم والتصويب. وإذا ما انقضت المناسبات والملابسات، بقيت هذه الآيات لا بمثابة الذكرى التي تسجل واقعة انقضت، وليست كمحفظة تاريخية

١- الإمام الفراهي، دلائل النظام، المطبعة الحميدية، ١٣٨٨هـ، النسخة الإلكترونية، ص ١٨-١٩.

٢- النظام القرآني، تأليف السيد عالم سبيط النيلي، إعداد فرقان محمد تقي مهدي الوائلي، ط٢/٢٠٠٢، ص ٢٤٣ (النسخة الإلكترونية).

أو بيان توثيقي، وإنما بقيت هذه الآيات تحتفظ بكامل فعاليتها التوجيهية النافذة عبر الزمان والمكان بالنسبة لكل موقف إنساني، اجتماعيا أو تاريخيا، يحتوي على عناصر الموقف الأساسي الذي كان سببا في النزول. ولأن المواقف التي تتخلل حياة الأفراد والجماعات والأمم لا تخلو من عناصر تلازمها ملازمة الفطرة للإنسان، فلا عجب أن ظل البيان القرآني ينبض حيوية وتفعيلا بوصفه تنزيلا من لدن عليم خبير، خالق الإنسان معلمه البيان، مدبر ومهيء الأسباب»<sup>(١)</sup>.

إن الخطاب القرآني ليس نصوصا محدودة ومتناهية على مستوى المعاني وتفرعاتها، وإن كانت نصوصا محدودة ومتناهية على مستوى اللفظ. فالخطاب القرآني يتميز بالإطلاقية التي تجعل الإحاطة به مطلقا أمرا مستحيلا في أي زمان أو مكان بل هو يعطي لكل زمان ومكان ما لم يعطه لما قبله. بخلاف النص البشري فهو محدود المعنى محدود اللفظ.

### ١) نظام/نسق/بناء/ترتيل القرآن الكريم:

لقد أنزل القرآن الكريم على نظام مرتل متسق، يشد بعضه بعضا كما تشد الحجرات في البنيان، «ولما كان الأصل في نظم القرآن أن تعتبر الحروف بأصواتها وحركاتها ومواقعها من الدلالة المعنوية، استحال أن يقع في تركيبه ما يسوغ الحكم في كلمة زائدة أو حرف مضطرب أو ما يجري مجرى الحشو والاعتراض، كما تجد من كل ذلك في أساليب البلاغ، بل نزلت كلماته منازلها على ما استقرت عليه طبيعة البلاغة، وما قد يشبه أن يكون من هذا النحو الذي تمكنت به مفردات النظام الشمسي وارتبطت به سائر أجزاء المخلوقات صفة متقابلة بحيث لو نزعنا كلمة منه أو أزيلت

١- د. منى عبد المنعم أبو الفضل، نحو منهجية للتعامل مع مصادر التنظير الإسلامي بين المقدمات والمقومات. مطبوعات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط. ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م. ص ٢١-٢٢.



عن وجهها، ثم أدير لسان العرب كله على أحسن منها في تأليفها وموقعها وسدادها، لم يتهياً ذلك ولا اتسعت له اللغة بكلمة واحدة»<sup>(١)</sup>. فكل حرف وكل كلمة في القرآن إنما وضعا لتأدية غرض ما في ترابط وتشابك عجيبين، وليس فيه حرف ولا كلمة زائدان كما ذهب إلى ذلك بعض شراح النص القرآني إن لم نعتبر صنيعهم مجرد تقدير منهجي لإيصال المعلومة إلى المتلقين طلباً وجمهوراً.

فليس للأمة المخرجة بالوحي من سبيل لإدراك حقيقة القرآن والاهتداء به نحو التي هي أقوم، إلا إذا تجاوزت النظرة الجزئية إلى كتاب ربها واستوعبت آياته في إطار السور، ونجومه في إطار الأجزاء، وكذلك لن تتحقق لها المقدرة على التعامل مع كليات الكتاب الحكيم، ما لم تستطع تجاوز المبنى إلى المعنى، وعندها يعود القرآن الكريم إلى موقعه الذي قدر له في حياة الأمة مرشداً ودليلاً وفرقاناً وبياناً للهدى والحق. فالتخطيط الذي يمكن أن تستنبطه في نظم القرآن في ترتيبه الحالي، إنما هو التخطيط للفعل الحضاري.

فوجب استيعاب النسق القرآني جملة، وليس فقط الوقوف على الجزئيات فيما عساها أن تحمل من محتوى معنوي، فهناك علاقات لا يمكن أن تكتشف إلا من خلال المعنى الكلي من خلال أنماط التجاور والتقابل وعبر الانتقال بين مواضع وأخرى، أو من خلال متابعة إيقاعات الخطاب في حركاته. فيقدر استيعاب النظرة الكلية وبقدر التمكن من جوهر الوحدة التي ينطوي عليها النظم القرآني، في معناه ومقصده وليس فقط في شكله وبنائه، يأتي الفهم للقرآن وافياً نافذاً شاملاً، يحمل دلالات توجيهية عملية بالنسبة للمخاطبين.

١- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، د. مصطفى صادق الرافعي. دار الكتاب العربي بيروت لبنان.

١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص ٢٢٤-٢٢٥.

## ٢) لغة القرآن المجيد وألفاظه:

### أ- عربية القرآن:

أنزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، متوجهاً إلى الإنسان أمراً إياه بأن يقرأ ويفقه عن ربه، فلفهم الخطاب القرآني وفقحه وجب فهم لسانه وفقحه، فاللغة العربية هي المدخل الرئيس لفهم الخطاب القرآني. ولهذا السبب ظن البعض أن القرآن خاص بالعرب دون غيرهم، لأنه نزل بلغتهم ولا سبيل إليه إلا من جهة لغتهم، ونسوا بأن القرآن الكريم فوق لغة العرب، يقول د. مصطفى الرافي: «ولقد صارت ألفاظ القرآن بطريقة استعمالها ووجه تركيبها كأنها فوق اللغة، فإن أحداً من البلغاء لا تمتنع عليه فصح هذه العربية متى أرادها، وهي بعد في الدواوين والكتب، ولكن لا تقع له مثل ألفاظ القرآن في كلامه، وإن اتفقت له نفس هذه الألفاظ بحروفها ومعانيها، لأنها في القرآن تظهر في تركيب ممتنع فترف به، ولهذا ترتفع إلى أنواع أسمى من الدلالة اللغوية أو البيانية التي هي طبيعية فيها، فتخرج من لغة الاستعمال إلى لغة الفهم وتكون بتركيبها المعجز طبقة عقلية في اللغة»<sup>(١)</sup>.

لقد نزل القرآن الكريم بهذه اللغة على نمط يعجز قليله وكثيره معا، فكان «أشبه شيء بالنور في جملة نسقه، إذ النور جملة واحدة وإنما يتجزأ باعتبار لا يخرج من طبيعته، وهو في كل جزء من أجزائه وفي أجزائه جملة لا يعارض بشيء إلا إذا خلقت سماء غير السماء، وبدلت الأرض غير الأرض. وإنما كان ذلك لأنه صفي اللغة من أكارها، وأجراها على بواطن أسرارها. فجاء بها في ماء الجمال أملاً من السحاب، وفي طرأة الخلق أجمل من الشباب، ثم هو بما تناول من المعاني الدقيقة التي أبرزها في جلال الإعجاز، وصورها بالحقيقة وأنطقها بالمجاز، وما ركبها به من

١- إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص ٢٢٦.

المطاوعة في قلب الأساليب، وتحول التراكيب إلى التراكيب، قد أظهرها مظهرها لا يقضى العجب منه، لأنه جلاها على التاريخ كله لا على جيل العرب بخاصته، ولهذا بهتوا لها حتى لم يتبينوا أكانوا يسمعون بها صوت الحاضر؟ أم صوت المستقبل؟ أم صوت الخلود؟ لأنها هي لغتهم التي يعرفونها»<sup>(١)</sup>.

لسان القرآن الكريم يتفرد عن لغة العرب، فهو إن كان يتصل بها من جهة الألفاظ، فهو ينفصل عنها من جهة الأغراض. وعلاقة لغة العرب بلسان القرآن هي علاقة النسبي بالمطلق، فلغة القرآن الكريم لغة مطلقة شاملة ومستوعبة للعرب وغيرهم، وليس بحثنا عن أوجه تداخل اللغات مع اللغة العربية، ولكن حسبنا معرفة كيف يستعان باللغة العربية على فهم ألفاظ القرآن ومعانيه.

#### ب- ألفاظ القرآن الكريم:

اللغة الألفاظ، وهذه الألفاظ ينظر إليها من حيث هي أبنية صوتية مادتها الحروف وصورتها الحركات والسكنات، ومن حيث هي ألفاظ ذات معان ودلالات، وهذا النظر أهم من الأول، فالألفاظ تكتسب أهميتها من حيث تصويرها للمعاني والدلالات ونقلها من المتكلم إلى المخاطب بها، لا من حيث أجراسها وأنغامها.

يقول الراغب الأصفهاني: «أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن، العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية، تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه، كتحصيل اللب في كونه من أول المعاون في بناء ما يريد أن يبينه. وليس ذلك نافعاً في علوم القرآن فقط بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع، فالألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرامته،

١- نفسه، ص ٧٤.

وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفرع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم. وما عداها وعدا الألفاظ المتضرعات عنها، والمشتقات منها، هو بالإضافة إليها كالتشور والنوى بالإضافة إلى أطياب الثمرة، وكالتحالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة»<sup>(١)</sup>.

وتأتي أهمية الألفاظ القرآنية من كونها كلمات الله عز وجل، فهي كلمات ليس كالكلمات البشرية، ف«الاستخدام الإلهي للمفردة اللغوية، يرتقي بدلالاتها إلى مستوى المصطلح المحكم الدقيق، خلافا للكسب البلاغي البشري عامة. فالفرق بين كلام الله وكلام البشر أكبر من الفرق بين الإنسان والتماثيل الطينية. فكما أن إرادة الله ومشيئته حين توجهتا إلى الطين صيرتاه إنسانا ناطقا مريدا فاعلا، فكذلك حين توجهتا إلى الحروف والكلمات صيرتاها قرآنا مرتلا منيرا هاديا.

إن استخدام القرآن للمفردة اللغوية يعطيها الطابع المرجعي الذي يحكم دلالاتها حيثما وجدت في القرآن، فإذا تم التعرف على دلالة مفردة لغوية قرآنية بالآليات المنهجية المناسبة... فإنه يتم الانفصال بالدلالة الحاكمة التي تُقهم اللفظة بحسبها في القرآن كله»<sup>(٢)</sup>.

فألفاظ القرآن الكريم هي المفتاح لفقعه وفهمه، وبفهمها وفقهها يفهم ويضبط الدين، فالوحي نسق وبناء مفهومي مركب من مجموعة من المفاهيم التي تتولد عن ألفاظه. ولا سبيل إلى فقهه النسق أو المفاهيم المكونة للقرآن، بغير دراسة ألفاظ القرآن الكريم، فهي «مفتاح الوصول إلى ما نزل على الرسول ﷺ قرءانا وسنة، وهي المدخل المصطلحي المقطوع بأنه من الوحي،

١- المفردات في غريب القرآن، أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق وضبط محمد خليل عيتاني. دار المعرفة بيروت لبنان، الطبعة الثالثة ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م. ص ١٠.

٢- الترتيل في القرآن المجيد: دراسة في المفهوم والمستويات. د. أحمد عبادي. مجلة رسالة القرآن، العدد الثاني، السنة الأولى: ذو القعدة - ذو الحجة - محرم ١٤٢٥/١٤٢٦هـ. يناير. فبراير/مارس.

واختيارها من الله جل وعلا، واستعمال السنة لها تابع لاستعمال القرآن، فدراستها في القرآن والسنة تقضي إلى العلم بمفاهيمها المفردة، وأنساقها المركبة»<sup>(١)</sup>.

إن دراسة ألفاظ القرآن الكريم تكون في القرآن الكريم، وما تتبع ألفاظه في لسان العرب إلا مرحلة أولية من مراحل الدراسة لمعرفة التطور الحاصل على اللفظ في لسان العرب، ثم التطور الذي أحدثه القرآن على اللفظ، وبهذا يكون تتبع ألفاظ القرآن في لسان العرب ليس هدفا في ذاته وإنما هو وسيلة معينة على الفهم، على عكس ما هو حاصل في علوم اللغة العربية، فبعدما كانت وسيلة يستعان بها على إيضاح معاني القرآن، أصبح القرآن وسيلة لإيضاحها، وانحسرت مهمة القرآن في تقديم شواهد لتوضيح القواعد النحوية والبلاغية وغيرها من علوم اللغة.

إن القرآن الكريم «يتعالى عن تقنين المعرفة به، ووضع قوالب وقواعد لفهمه من خارجه، وإن بدا أن هذا الخارج هو المحيط اللغوي «المشترك»، إذ لغة القرآن أسمى وأكبر من قواعد اللغة، ناهيك عن ضوابط المناهج المعرفية البشرية، فاللغة العربية وقواعدها بإزاء القرآن المجيد ولغته، لا تعدو كونها تحدييدات نسبية إيجابية لا غرو تقرب من القرآن، ولكن لا تقننه، لأن القرآن العظيم مطلق، والمطلق لا يقنن من خارجه. فلا يصح أن يقال عن القرآن (نيابة عنه)، فالقرآن يقول عن كل شيء بما في ذلك اللغة. وعلى اللغة التفهم بالرد إليه وليس إلى ذاتها، على ما يسوء وينوء. إذ تحديد معاني ألفاظ القرآن من خارجه دون الرد إليه عن طريق الترتيل، ثم فرض تلك التحدييدات عليه، حجب للقرآن وليس ببيان له.

وذلك أن الألفاظ في القرآن مترابطة ترابطا عضويا بعلم الله وإحاطته، ترابطا يجعلها تند عن الزمان والمكان، فتصبح غير نهائية المعاني التي

١- القرآن الكريم والدراسة المصطلحية. د. الشاهد البوشيخي. ص: ٤.

يمكن أن تندهق منها. فألفاظ القرآن رغم عربييتها ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عَوَجٍ لِّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الزمر: ٢٨)، ورغم كون اللغة العربية درجا أساسيا لفهم هذه الألفاظ القرآنية، فإنها لا تكفي وحدها لتحديد معانيها. فاللغة القرآنية مندمجة اندماجا كليا بالرؤية الشمولية للحياة والأحياء، وللمصدر والمآل، التي يستدرجها القرآن الكريم بين آياته.

إن القرآن المجيد، بما أنه وحي أوحى به من عند الله، أكبر من الواقع العيني المشخص الذي يتنزل عليه، فلا يكون - بالتبع - فهمه إلا في ضوء ما تكرم الموحى به سبحانه بإيداعه فيه من ضوابط فهمه، ومداخل المعرفة به. ومن هنا، ضرورة الترتيل على المستوى اللفظي لتحقيق الألفاظ، في ضوء الاستبعاد الكلي لاحتمال وجود ترادف بالمعنى الشائع للترادف<sup>(١)</sup>.

فالألفاظ القرآنية لا بد من تتبعها قصد تحقيقها وبيان مدلولاتها ومفاهيمها من داخل القرآن نفسه حتى لا تحمل من خارج القرآن ما لم ينزل به الله من سلطان. وذلك أن الألفاظ القرآنية مترابطة بينها، ولا يمكن فهمها إلا برد بعضها إلى بعض وقراءة بعضها في ضوء وإثر بعض.

وهذا الترابط هو ما يعبر عنه بالنظم/النسق أو الوحدة البنائية أو الترتيل، يقول د. أحمد عبادي: «إن من لم يدرك بنائية القرآن ووحدة ألفاظه العضوية، يمكن أن يقع في تعضية وتمزيغ خطيرين بإدخاله فيه من خارجه مدلولات ألفاظ لا تمت (أي المدلولات) إليه بصلة، مما من شأنه أن يحول دون الاستهداء به نحو التي هي أقوم. إن الترتيل وحده هو الذي يمكن من ربط المفردات ببعضها، ومن اختبار ما فهمناه منها بفنتته على نور الآيات، عن طريق السير في القرآن وفي الأفاق»<sup>(٢)</sup>.

١- مفهوم الترتيل في القرآن المجيد، ص: ٦٧.

٢- مفهوم الترتيل، مرجع سابق، ص ٦٨.

ومن المناهج الكاشفة عن نظام القرآن الكريم والهادية إليه، نذكر، على سبيل المثال لا الحصر، منهجين من بيئتين مختلفتين<sup>(١)</sup>:

#### ١- منهج الدراسة المصطلحية<sup>(٢)</sup>:

وهي دراسة منهجية تتبين مفاهيم المصطلحات من نصوصها، وتبين المقومات الدلالية الذاتية للمصطلح، وامتداداته داخل النسيج المفهومي للنص عبر ضمائه واشتقاقاته، والقضايا الموصولة به. والدراسة المصطلحية تنقسم إجمالاً إلى مرحلتين بارزتين؛ مرحلة استقرار، ومرحلة استنباط. فالأولى تشتمل على تتبع المصطلح في نصوصه وإحصائه إحصاء تاماً، كيفما ورد وأينما ورد، ثم تتبعه عبر المعاجم اللغوية بدءاً بأقدمها، وانتهاءً بأخرها، مع لحظ إضافات اللاحق على السابق، وكذا في المعاجم الاصطلاحية. أما الثانية فهي مرحلة استنباط، وتشتمل على دراسة المصطلح وما يتصل به دراسة نصية بهدف تعريفه، واستخلاص كل ما يسهم في تجلية مفهومه. ثم دراسته دراسة مفهومية؛ أي دراسة نتائج الدراسة النصية وتصنيفها تصنيفاً مفهوماً، من صفات، وخصائص، وعلاقات، وضمائم، ومشتقات، وقضايا، وغيرها، لكي يخلص الباحث في النهاية إلى صياغة «بطاقة هوية» للمصطلح المدروس وهو المبتغى من الدراسة ككل.

وفي كيفية إبانة الدرس المصطلحي عن نظام القرآن الكريم، تقول د. فريدة زمرد: «قد يكون من الغلو الزعم بأن جدوى الدراسة المصطلحية لا تظهر حقاً إلا بإعمالها في مجال النص القرآني، ولكنها حقيقة يؤكدها

١- هناك منهج ثالث لصاحبه السيد عالم سبيط النيلي، سماه بـ «المنهج اللفظي»، وقد بسط معالمه في كتابه النظام القرآني وقد سبق ذكره، لم أذكره هنا تفادياً للتشويش الذي قد يحدث من خلال غرابة ألفاظه وشذوذ بعض قواعده وغير ذلك من الانتقادات التي قد توجه إلى هذا المنهج.

٢- لمعرفة مزيد من التفاصيل عن منهج الدراسة المصطلحية، يرجى الاطلاع على مشروع المعجم التاريخي للمصطلحات العلمية، د. الشاهد البوشيخي، ط ١ محرم ١٤٢٢/٢٠٠٢، ص ٢٩-٣٠.

هذا النص الكريم الذي تميز - من بين ما تميز به - «بنسقية» مصطلحاته و«سياقية» نصوصه، واشتماله على «نظام مفهومي» متناسق الأطراف مترابط العرى متكامل الفصول، وليس يبين عن عرى هذا النظام سوى الدرس المصطلحي الذي يكشف ما يكتنف كل مصطلح ولفظ ومفهوم من دلالة، وما يعتريه من مميزات وصفات، وما يربطه بغيره من علاقات، وما ينشأ عنه من ضمائم وتركيبات، وما يتعلق به من قضايا ومستفادات»<sup>(١)</sup>.

## ٢- المنهج الدلالي (حسب رؤية إيزوتسو)<sup>(٢)</sup>:

يقر إيزوتسو أثناء حديثه عن علم الدلالة في كتابه «اللَّهُ والإنسان في القرآن»، بحقيقة هي أن ما يسمى علم الدلالة Semantics معقد على نحو مذهل للغاية. ومن الصعب جداً، هذا إن لم يكن مستحيلاً، على شخص

١- مفهوم التأويل في القرآن والحديث الشريف، د. فريدة زمرد. سلسلة الرسائل الجامعية (٢)، معهد الدراسات المصطلحية كلية الآداب ظهر المهرز فاس. ط ١ أكتوبر ٢٠٠١. ص ٧٨.

٢- توشيهيكوايزوتسو Toshihiko Izutsu باحث ياباني، ولد في طوكيو في اليابان، عام ١٩١٤، وكان باحثاً ولغوياً وأستاذاً جامعياً، درس في معهد الدراسات الثقافية واللغوية من جامعة Keio في طوكيو (١٩٥٤-١٩٦٨)، وفي المعهد الملكي لدراسة الفلسفة في طهران، وفي معهد الدراسات الإسلامية من جامعة مكجيل McGill في مونتريال بكندا، وكان أستاذاً فخرياً وعضواً في الأكاديمية اليابانية.

ألف عدداً من الكتب عن الإسلام والأديان الأخرى، وعن اللغة والتصوف، وهو من أوائل من ترجم القرآن الكريم إلى اللغة اليابانية، وترجمته معروفة بدقتها اللغوية وما زالت مشهورة وكثيرة الاستعمال في الأعمال العلمية. توفي في: ١ يوليو/تموز ١٩٩٢. ألف بالإنجليزية:

- المفهومات الأخلاقية الدينية في القرآن (Ethico-Religious Concepts in the Quran).

- بين الله والإنسان في القرآن: دراسة دلالية لنظرة القرآن إلى العالم، GOD AND MAN IN THE KORAN: Semantics of the koranic weltanschauung.

- مفهوم الإيمان في علم الكلام الإسلامي Concept of Belief in Islamic Theology صدر عام ١٩٨٠.

- دراسة مقارنة للمفهومات الفلسفية الرئيسية في التصوف والطاوية (١٩٨٤): Sufism and Taoism: A Comparative Study of Key Philosophical Concepts.

- اللغة والسحر Language and Magic (١٩٥٦). وله باليابانية المؤلفات التالية: ١. تاريخ الفكر

الإسلامي ٢. الفلسفة الصوفية ٣. الثقافة الإسلامية ٤. الوعي والذات ٥. الكون وأضداد الكون.



غير متخصص أن يظفر حتى بفكرة عامة عن ماهية هذا العلم، ف«علم الدلالة»، كما يرى إيزوتسو، من حيث هو دراسة للمعنى، لا يمكن أن يكون إلا نمطا جديدا من الفلسفة مبنيا على تصور جديد تماما للكون والوجود، وشاملا لأفرع كثيرة مختلفة ومتنوعة جدا من أفرع العلم التقليدي، التي ما تزال حتى الآن في أية حال بعيدة عن أن تكون قد أنجزت المثل الأعلى لتكامل تام. كما يلحظ أنه علم يفترق إلى التناغم والانسجام، وأن ما نمتلكه في أيدينا عدد من النظريات المختلفة للمعنى<sup>(١)</sup>.

تأسيساً على هذه الملاحظات يسجل إيزوتسو تصويره الخاص لعلم الدلالة الذي سيعتمده في دراسته فيقول: «علم الدلالة كما فهمته هو دراسة تحليلية للتعبير المفتاحية Key- terms في لغة من اللغات ابتغاء الوصول أخيراً إلى إدراك مفهومي للنظرة إلى العالم Weltanschauung لدى الناس الذين يستخدمون تلك اللغة أداة ليس فقط للتحدث والتفكير، بل أيضاً، وهذا أكثر أهمية، لتقديم مفهومات وتفاسير للعالم الذي يحيط بهم»<sup>(٢)</sup>.

فهدف الدراسة الدلالية للقرآن هو البحث عن رؤية القرآن لكيفية بناء عالم الوجود، وما المكونات الرئيسة للعالم، وكيف يربط بعضها ببعض، فيكون علم دلالات الألفاظ وتطورها، في هذا المعنى، نوعاً من علم الوجود ontology. علم وجود محدد وحي ومتحرك<sup>(٣)</sup>.

ولإنجاز عمله يوضح المرتكزات الأساسية التي ستضبط تحليله الدلالي، وذلك من خلال مداخل أساسية، أو مصطلحات اعتمدها أو ابتكرها ليوضح فكرته، وهي إجمالاً كالآتي:

١- شبكة المفهومات في القرآن وتستند على جملة نظام العلاقات.

٢- التحول الدلالي من خلال السياق القرآني.

١- الله والإنسان، ص ٢٩.

٢- نفسه، ص ٣٠.

٣- الله والإنسان، ص ٣٠.

٣- المعنى الوجودي والمعنى السياقي.

٤- التعابير المفتاحية: المعجم اللغوي والنظرة إلى العالم.

٥- الحقول الدلالية.

٦- الكلمة الصميمة<sup>(١)</sup>.

وقد اطلعت على الكتابين لإيزيتسو، وخاصة كتاب «الله والإنسان في القرآن» في ترجمته الأولى والثانية. وهذه الأخيرة لعيسى العاكوب أحسن جودة من الأولى، ووجدت تقاربا كبيرا. إن لم أقل تطابقا. على مستوى النتائج التي انتهى إليها إيزوتسو عن طريق علم الدلالة، وبين النتائج التي يتم التوصل إليها عن طريق الدراسة المصطلحية، مما يؤكد القول بأن مثل هذه المناهج توحد المعاني، وتحول دون التشاكس والاختلاف في القرآن الكريم، فرغم اختلاف أركانها ومصطلحاتها، واختلاف بيئاتها إلا أنها تنضبط بضابط واحد وتحتمك إليه، ألا وهو النظام القرآني الذي لا اختلاف فيه ولا تعدد.

فبضبط مفاهيم القرآن الكريم وفقا لنظامه، تضبط تبعا لذلك مفاهيم الدين، وقد أمكن تكوين الميزان الذي به تُقوّم عطاءات واجتهادات العصور... ومتى تجدد فهم المفاهيم فقد تعبد الطريق لتجديد الدين لمريديه<sup>(٢)</sup>.

إن معين القرآن الكريم لا ينضب، ومعانيه لا تنتهي، وكلماته لا تنفد،

١- وقد قام الباحث السوري الأستاذ الدكتور عبد الرحمن حطلي جزاه الله خيرا، بمجرد ملامح منهج الدرس الدلالي والقرآن عند توشيهيكوايزوتسو، من خلال كتابيه «الله والإنسان في القرآن»، المفهومات الأخلاقية الدينية في القرآن. وللاطلاع على الدراسة كاملة يرجى الدخول إلى موقع المنتقى الفكري للإبداع عبر الرابط التالي:

<http://www.almultaka.net/ShowMaqal.php?module=83e00eee3bc7ddacac3d26b28004146e&word=%C7%D3%CA%CE%CF%C7%E320%DA%E1%E320%CF%7%E1%CF%E1%CF%9&cat=1&id=669>.

٢- نحو منهج لدراسة الأنفاظ القرآنية، د. الشاهد البوشيخي. محاضرة أقيمت بندوة «القرآن المجيد وخطابه العالمي»، ٢١ - ٢٦ ماي ١٩٩٧، بكلية الآداب بأكادير. نقلًا عن أحمد عبادي، مرجع سابق، ص ٦٨.

فترى للآية الواحدة أو الكلمة «وجوها عدة، كلها صحيح أو محتمل الصحة، كأنما لو أنها فص من الماس يعطيك كل ضلع منه شعاعا، فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلها فلا تدري ماذا تأخذ عينك وماذا تدع. ولعلك لو وولت النظر فيها إلى غيرك رأى منها أكثر مما رأيت. وهكذا تجد كتابا مفتوحا مع الزمان يأخذ كل منه ما يسر له، بل ترى محيطا مترامي الأطراف لا تحده عقول الأفراد ولا الأجيال.

ألم تر كيف وسع الفرق الإسلامية على اختلاف منازعها في الأصول والفروع؟ وكيف وسع الآراء العلمية على اختلاف وسائلها في القديم والحديث؟ وهو على لينة للعقول والأفهام صلب متين. لا يتناقض ولا يتبدل. يحتج به كل فريق لرأيه، ويدعيه لنفسه، وهو في سموه فوق الجميع يطل على معاركهم حوله، وكأن لسان حاله يقول لهؤلاء وهؤلاء<sup>(١)</sup>: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٤).

ففهم ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه، غير متوقف على زمان أو مكان أو إنسان، بل هو فهم يستمر ويتجدد بتجدد القراءة واستمرارها، ويتوالي الأجيال والأزمان، فهو القائل فيه عز وجل: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفِدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (الكهف: ١٠٩)، وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمان: ٢٧). فلا يدعي الإحاطة بمفاهيم ومعاني القرآن وحصرها إلا جاهل! بل هي تتجدد بتجدد الأزمان والأجيال. فالقرآن كتاب مكنون تتكشف معانيه عبر العصور والأمكنة لذوي القلوب الطاهرة المطمئنة بالإيمان.

١ - النبا العظيم، مرجع سابق، ص ١١٧ - ١١٨.



الباب الأول

المحددات الدلالية والمفهومية  
للتصديق والهيمنة في القرآن الكريم



تشكل منظومة الوحي وحدة متكاملة مترابطة ومتماسكة، فهي بمثابة العروة الوثقى التي لا انفصام لها، ولقد كان تتابع الرسائل عبر الزمان والمكان مواكبا لتطور الإنسان وتدرجه نحو مدارج الكمال، فجاء الوحي في المرحلة الأخيرة الخاتمة في صورته الكاملة الشاملة المستوعبة للزمان والمكان.

فالتحدي الذي كان يواجه الإنسان قبل مرحلة الختم هو كيف له بمرجع لا ينهيها، أو بتعبير القرآن كيف له بعروة وثقى لا انفصام لها؟ والملاحظ لخط الرسائل وتتابعها، أن كل رسول كان يأتي برسالة أوسع من التي سبقتها، فالرسالة السابقة تبشر باللاحقة، واللاحقة تستوعب السابقة وتزيد عليها إما تخفيفا، أو تبديلا، أو بيانا، أو إحياء، أو إنشاء.

وهكذا كانت الرسالة الخاتمة مستوعبة لكل الرسائل قبلها، وكانت أوسع الرسائل مصدقة لما قبلها ومهيمنة عليها، فعملية التصديق والهيمنة تمنح القدرة والاستطاعة باستمرار على إيجاد مجال أوسع يمنح قدرة تفسيرية مفتوحة عبر الزمان والمكان.





الفصل الأول

المحددات الدلالية

والمفهومية للتصديق في القرآن الكريم





## المبحث الأول: الدلالات اللغوية والاصطلاحية للتصديق

كثيرة هي استعمالات «الصدق» في اللغة والاصطلاح، وكذا في القرآن، ومن ثم تتعدد دلالات هذا المصطلح باختلاف استعمالاته واشتقاقاته. فما هو قرب أو بعد دلالات مصطلح «التصديق» من جذره اللغوي «صدق» لغة واصطلاحاً؟ وما هي المحددات الدلالية والمفهومية للتصديق في القرآن الكريم من خلال مواضع ذكره وسياقات وروده وضمائمه وإضافاته؟ هذا ما سأروم تبيينه وبيانه في هذا الفصل بإذن الله.

### ١) التصديق في المعاجم اللغوية:

يعود لفظ «التصديق» إلى الجذر «صدق» المكون من: صاد ودال وقاف، وهي تدل على قوة الشيء في نفسه وصلابته.

- قال ابن فارس: «الصاد والدال والقاف أصل يدل على قوة في الشيء قولاً وغيره»<sup>(١)</sup>.

فكل ما كان فيه قوة وصلابة في نفسه من قول أو غيره فهو صدق، وإن كان الأصل فيه القول، لذا بدأ به ابن فارس.

- ولأجل هذا قال الراغب الأصفهاني: «الصدق والكذب أصلهما في القول، ماضياً كان أو مستقبلاً، وعداً كان أو غيره، ولا يكونان بالقصد الأول إلا في القول»<sup>(٢)</sup>.

ولهذا المعنى تجد معاجم اللغة تبدأ بهذه المادة، ومن ثم تعرج على باقي معانيها المجازية، ولذا فمعانيها حقيقة ومجازاً ترجع إلى:

- الشدة والصلابة، يقال هذا شيء صدق، ورمح صدق وسيف صدق، ورجل صدق، أي صلب.

١- معجم مقاييس اللغة: مادة: صدق، (٢٣٩/٢)، من طبعة: دار الجيل.

٢- تاج العروس للزبيدي، مادة: صدق (٥/٢٦) من طبعة: وزارة الإعلام بالكويت.

- مطابقة القول لما في الضمير والواقع معا، صدق في الحديث صدقا .  
 يفتح الصاد وكسرهما معا. فإن اختلف شرط من عدم توافق الضمير والواقع  
 قيل عنه إنه كذب، فلذا أكذب الله تعالى المنافقين في قولهم: ﴿إِذَا جَاءَكَ  
 الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ  
 الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (المنافقون: ١).

- الإقدام والشجاعة والثبات في ساحة الحرب، ومنه قولهم: صدقوا في  
 القتال، وصدق في الحرب، إذا أقدموا وثبتوا في ساحة القتال ببسالة، وفعلوا  
 ما يجب فعله في العدو<sup>(١)</sup>.

- كل ما نسب إلى الصلاح والخير والجودة، إذا أضيف إلى الصدق،  
 كتقولهم: رجلٌ صدق، وصدیقٌ صدق، يوصفون بالخير والصلاح لا صدق  
 اللسان<sup>(٢)</sup>.

- المنزل الصالح، ومنه قوله تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي  
 إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صَدِيقٍ﴾ (يونس: ٩٣)، أي منزل صدق.

- كما يطلق على كل فعلٍ فاعل ظاهرا وباطنا أضيف إلى الصدق، ومنه  
 قوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صَدِيقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (القمر: ٥٥)، ومنه أيضا قوله  
 تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صَدِيقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (يونس: ٢).

- في كل ما يتحقق ويحصل عن الاعتقاد، وقولهم: صدق ظني وكذب،  
 من هذه الباب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِلَهِسَ ظَنَّهُ﴾  
 (سبأ: ٢٠)، بتخفيف الدال ونصب الظن، أي صدق عليهم في ظنه، قال  
 الضراء: ومن قرأ بالتشديد فمعناه أنه حقق ظنه، لأنه حين قاله إنما

١- الكليات لأبي البقاء الكنوي، ص: ٥٥٧. من طبعة: الرسالة، تحقيق: د: عدنان درويش و: محمد  
 المصري.

٢- المرجع نفسه.

كان ظانا فتحقق ذلك له في الضالين<sup>(١)</sup>.

وقد تنوع استعمال هذا الجذر من فعل ثلاثي يتعدى ولا يتعدى، فمن الأول: صدقه الحديث، إذا أخبره بما هو صحيح، وصدق في الحديث إذا استعمل لازما، ومنه قوله تعالى: ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ (الأحزاب: ٢٢).

وصدقه النصيحة والإخاء إذا أمحضهما له<sup>(٢)</sup>، وهذا في تعديته إلى مفعول واحد، وقد يتعدى إلى اثنين؛ ومنه قولهم: صدق فلانا الحديث<sup>(٣)</sup>، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ (آل عمران: ١٥٢).

إلى مضعف بالتشديد، صدَّقه إذا نسبه إلى الصدق، وقال له: صدقت وقبل قوله، ومنه قوله تعالى لإبراهيم الخليل: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا﴾ (الصافات: ١٠٥).

وقد يتعدى مشددا بالباء ومنه قوله تعالى ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (الزمر: ٢٣، أي حقق ما أورده قولاً بما تحراه فعلا<sup>(٤)</sup>)، ومنه أيضا: ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ (الليل: ٦).

ويتعدى بالهمزة: أصدقها؛ جعل وسمى لها صداقا.

والصديق: الكثير الصدق والدائم التصديق والملازم له<sup>(٥)</sup>، ومنه قوله تعالى في شأن إبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ (مريم: ٤١).

والصديق: المصادق لك ومن تربطك به علاقة مودة<sup>(٦)</sup>.

١- تاج العروس: (١٦/٢٦).

٢- تاج العروس: (١٦/٢٦).

٣- تاج العروس: (٦/٢٦).

٤- تاج العروس: (١٥/٢٦).

٥- معجم مقاييس اللغة: (٢٣٩/٢)، تاج العروس: (١٢/٢٦).

٦- تاج العروس: (٧/٢٦).

والصداقة مصدر الصديق، والفعل: صادقه مصادقة، بمعنى صدقة المودة والنصيحة<sup>(١)</sup>.

ووصف الله تعالى القرآن والرسول الكريم بقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ (البقرة: ٨٩)، ﴿وَمَا آمَنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرِينَ بِهِ﴾ (البقرة: ٤١)، ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ (البقرة: ١٠١)، وغيرها من الآيات التي تحدث فيها تعالى عن القرآن وكونه مصدقا لما بين يديه، وكذلك وصف الله به سيدنا عيسى وأنه مصدق لما بين يديه من التوراة في قوله تعالى ﴿وَفَقَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآيَاتُنَا الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ (المائدة: ٤٦) وذلك مضاده أنه يصدق المتأخر المتقدم سواء كان كتابا منزلا أو رسولا، وأنه لا تجد فيهما ما يتناقض.

وقد وصف الله تعالى المؤمنين بالمصدق بالفتح الصاد وتشديد الدال في قراءة ابن كثير وأبي بكر بن شعبة، ﴿إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ﴾ (الحديد: ١٨)، وهو على هذا من التصديق؛ بمعنى صدقوا رسول الله ﷺ فيما جاء به، وبقيّة القراء بتشديد الصاد من التصديق<sup>(٢)</sup>.

وورد هذا الجذر في وصف القرآن بـ«تصديق» في قوله تعالى: ﴿وَلَكِن تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس: ٣٧)، وهكذا فهذا الجذر يدور على الصلابة في القول والفعل، حتى

١- تهذيب اللغة: أبواب القاف والصاد، (٢٧٦/٨).

٢- جامع البيان لأبي عمرو الداني، (٢١١/٢-٢١٢)، من طبعة: دار الحديث بالقاهرة، تحقيق: أ. عبد الرحيم الطرهوني، ود: يحيى مراد، سنة: ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م. والحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي(٦/٢٧٤-٢٧٥)، من طبعة: دار المأمون للتراث، تحقيق: بدر الدين قهوجي وبشير جويجاتي، ط: ١، سنة: ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

تلك المعاني المجازية ترجع بالتمعن إلى هذا الأصل، كما علل ابن فارس الصدق بكونه قويا في نفسه، والكذب ضعيفا لذا فهو باطل.

## ٢) التصديق في المعاجم الاصطلاحية:

المعنى الاصطلاحي لا ينفك يأخذ من المعنى اللغوي دلالاته، لكنها قد تقرب أو تبعد، فما هو التصديق في الاصطلاح؟

دلالات التصديق ومعانيه تختلف من فن لآخر، فهو عند أهل العقيدة وأصول الدين: مطابق للإيمان<sup>(١)</sup>، ومع كل ذلك فهو يرجع إلى المعنى اللغوي الذي يدل على قوة الشيء وصلابته، إذ يجتمع فيه إقرار بالقلب وقول موافق لما في القلب باللسان، وتجري الجوارح على وفق ما في الجنان ونطق به اللسان، فيكون أحد هذه الأركان يصدق الآخر ويقويه ويحققه في الواقع. وأما عند المناطقة والمتكلمين: فيعرفونه بقولهم: إدراك الحكم أو النسبة بين طرفي القضية.

وهو عندهم فرع ثان من فروع العلم، إذ العلم يتكون من تصور وتصديق، وهو يأتي إثر مقدمات منطقية يحكم العقل بعدها بالحصول والمطابقة بين شيئين<sup>(٢)</sup>، فهو إذن قسيم للتصور ومرتكب عليه، ولا يوجد تصديق من غير تصور.

وعرفه السيوطي بقوله: التصديق: تصور مع حكم<sup>(٣)</sup>، أي أن التصور سابق عنه ومؤد إليه.

١- ولهم في هذا المبحث كلام طويل يرجع إليه في مظانه من كتب العقيدة والمنطق.

٢- التعريفات للجرجاني: ٧٥ من طبعة: دار النفائس، تحقيق: د: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط: ١، س: ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٣- معجم مقانيد العلوم للسيوطي: ١١٧، والكليات لأبي البقاء الكفوي في غير ما موضع، انظر تحديدا: ٢١٢-٢١٣-٢٩١-٢٩٢.

وأورد الكفوي تعريف التصديق المنطقي بقوله: إدراك الماهية مع الحكم عليها بالنفي والإثبات<sup>(١)</sup>.

وعند الجرجاني جاء تحديده بقوله: التصديق: وهو أن تنسب باختيارك الصدق إلى المخبر<sup>(٢)</sup>، وهو معنى لغوي صرف يوصف به القائل بعد التحقق من وجود القول في الواقع.

وقد أحسن العلامة عبد النبي الأحمد نكري إذ فصل القول في ذلك بقوله:

وللتصديق في اللغة ثلاثة معان:

- الأول: هو الإذعان بصدق القضية؛ أي التصديق بأن معنى القضية مطابق للواقع.

- والثاني: الإذعان بمعنى القضية أي التصديق بأن المحمول ثابت للموضوع<sup>(٣)</sup> في الواقع أو مسلوب عنه كذلك، وهذا المعنى هو التصديق المنطقي، من ها هنا قد اشتهر فيما بينهم أن التصديق المنطقي هو بعينه هو التصديق اللغوي.

- والثالث: عبارة عن التصديق بأن القائل مخبر عن كلام مطابق للواقع ويعبر عنه<sup>(٤)</sup>.

وفي التحقيق للعلامة المصطفوي: نجد أن الأصل الواحد في مادة «صدق» هو: التمامية والصحة من الخلاف والكون على حق. وهذا

١- الكليات للكفوي: ٢٩١.

٢- التعريفات للجرجاني: ١٢٣.

٣- الموضوع يعبر عنه النحاة بالمبتدأ، والمحمول هو الخبر، أي التحقق من ثبوت النسبة بينهما في الواقع، بعد ثبوتها في التصور والعقل.

٤- جامع العلوم في اصطلاحات الفنون: ١٤٧ بتصرف يسير .

المعنى يختلف باختلاف الموارد:

- ١- فالصدق في الاعتقاد: أن يكون مطابق الحق الواقع الثابت.
  - ٢- والصدق في إظهار الاعتقاد: أن يكون مطابق الاعتقاد بلا نفاق.
  - ٣- وفي القول والخبر: أن يكون مطابق المخبر عنه بلا خلاف.
  - ٤- وفي القول الإنشائي: أن يكون إنشاؤه مطابق قلبه وصميم نيته.
  - ٥- وفي الإحساس: أن يكون صحيحا تاما على ما هو في المتن.
  - ٦- وفي العمل: أن يكون تاما من جميع الجهات والشرائط.
  - ٧- وفي مطلق الأمور: بأن يكون صادقا في الاعتقاد والقول والعمل.
- فظهر أن حقيقة الصدق تختلف باختلاف الموارد والمصاديق: فالتمامية وصحة الأمر إما في قول، فيقال قوله صدق. أو في عقيدة، فيقال صدق في اعتقاده وفكره أو في عمل، فيقال هو صادق في أفعاله.
- والتصديق: جعل شيء صادقا وذا صدق<sup>(١)</sup>.

وبهذا التحقيق، يكون العلامة المصطفوي قد جمع شتات اللفظة وتداولها وأكد أنها تقتبس من الدلالة اللغوية ولا تنفك ترجع إليها، فقوله: «والأصل الواحد في هذه المادة (صدق) هو: التمامية والصحة من الخلاف والكون على الحق»، فالصحة من الخلاف تعني المطابقة والموافقة وهو المعنى الذي ذهب إليه اللغويون والمناطقية، وهو ما ذهب إليه المنسرون كما سنرى فيما يأتي.

---

١- التحقيق في كلمات القرآن الكريم، للعلامة المحقق المفسر حسن المصطفوي، دار الكتب العلمية، بيروت بتعاون مع مركز نشر آثار العلامة المصطفوي بلندن، (١٤ مجلدا). الطبعة الثالثة ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، ٦، ص: ٢٦٠-٢٦١-٢٦٢-٢٦٣.



### ٣) التصديق في اصطلاح المفسرين:

تباينت وتعددت أقوال المفسرين في معنى التصديق بتعدد السياقات التي ورد فيها في القرآن الكريم، ويمكن إجمالاً تقسيم أقوالهم حسب أصناف التصديق كما يلي:

#### ١- تصديق النبيين لبعضهم البعض<sup>(١)</sup>:

أ. قال ابن جزى (ت ٧٤١هـ): تصديق محمد ﷺ والرسول المتقدمين له ثلاث معان:

أحدهما أنهم أخبروا به ثم ظهر كما قالوا فتبين صدقهم في الإخبار به، والآخر أنه ﷺ أخبر أنهم أنبياء وأنزل عليهم الكتب، فهو مصدق لهم أي شاهد بصدقهم، والثالث أنه وافقهم فيما في كتبهم من التوحيد وذكر الدار الآخرة وغير ذلك من عقائد الشرائع فهو مصدق لهم لاتفاقهم في الإيمان بذلك...<sup>(٢)</sup>.

ب. وقال القاسمي (ت ١٢٣٢هـ): أنه ﷺ جاء طبق ما عندهم عنه في التوراة والإنجيل، وبمعنى أن أحواله جميعاً توافق البشائر<sup>(٣)</sup>.

ج. وقال الطبري (ت ٣١٠هـ): تصديق هارون لموسى في قوله تعالى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (القصص: ٣٤) أي يبين لهم عني ما أحاطبهم به. كما حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق: أي يبين لهم

١- ويُتضمن هذا القسم في الآية ٢٩ من سورة آل عمران، والآية ٢٥ من سورة القصص، والآية ٢٧ من سورة الصافات.

٢- ابن جزى الكلبي (٧٤١هـ)، التسهيل لعلوم التنزيل، ١/٦٤.

٣- القاسمي (١٢٣٢هـ)، محاسن التأويل، م/١ص ٢٢٩-٢٣٠.

عني ما أكلهم به، فإنه يفهم ما لا يفهمون<sup>(١)</sup>.

د - وقال الطاهر ابن عاشور (١٣٩٣هـ): ومعنى تصديقه إياه أن يكون سبباً في تصديق فرعون وملئه إياه بإبانتة عن الأدلة التي يلقيها موسى في مقام مجادلة فرعون... وليس التصديق أن يقول لهم: صدق موسى، لأن ذلك يستوي فيه الفصيح وذو الفهامة. فإسناد التصديق إلى هارون مجاز عقلي لأنه سببه، والمصدقون حقيقة هم الذين يحصل لهم العلم بأن موسى صادق فيما جاء به<sup>(٢)</sup>.

٢- تصديق النبيين والرسل لما بين أيديهم من الكتاب<sup>(٣)</sup>

أ. قال الألوسي (ت ١٢٧٠هـ): إنه ﷺ جاء على الوصف الذي ذكر فيها (التوراة)، أو أخبر بأنها كلام الله تعالى المنزل على نبيه موسى ﷺ، أو صدق ما فيها من قواعد التوحيد وأصول الدين، وأخبار الأمم والمواظ والحكم، أو أظهر ما سأله عنه من غوامضها...<sup>(٤)</sup>.

ب - وقال الطاهر بن عاشور: تصديق عيسى التوراة أمره بإحياء أحكامها<sup>(٥)</sup>.

ج - وقال أيضاً: هو التصديق بمعنى التقرير والإعمال على وجه الجملة، أي إعمال مجموعها وجمهرة أحكامها ولا ينافي ذلك أنه قد تغير بعض أحكامها بوحى من الله في أحوال قليلة<sup>(٦)</sup>.

١- ابن جرير الطبري، تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٢٤٨/١٨.

٢- الطاهر بن عاشور (١٣٩٣هـ)، التحرير والتنوير ٢٠-٢١/١١٦.

٣- يتضمن هذا القسم في كل من سورة البقرة في الآية ١٠١، وسورة آل عمران الآيتين ٥٠ و٨١، وسورة المائدة الآية ٤٦، وسورة الصف الآية ٦، وسورة التحريم الآية ١٢.

٤- الألوسي (١٢٧٠هـ)، تفسير روح المعاني، ٤٦٦/١.

٥- الطاهر ابن عاشور (١٣٩٣هـ)، تفسير التحرير والتنوير ٦/٢١٩.

٦- التحرير والتنوير، للطاهر ابن عاشور ٢٨/١٨٠ ١٨١.

٣- تصديق الانجيل للتوراة<sup>(١)</sup>

وتصديق الإنجيل التوراة اشتماله على ما وافق أحكامها<sup>(٢)</sup>.

٤- تصديق القرآن لما قبله<sup>(٣)</sup>.

أ. قال الطبري، لأن الذي في القرآن من الأمر بالإقرار بنبوته محمد ﷺ وتصديقه واتباعه، نظير الذي من ذلك في التوراة والإنجيل<sup>(٤)</sup>.

ب. وقال القاسمي: حاصل معنى كون القرآن مصدقاً لما معهم، أن ما أنزل عليه ﷺ هو طبق ما عندهم من حقية نبوته، وصحة البشائر عنه<sup>(٥)</sup>.

ج. وبهذا المعنى (المطابقة) قال ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)<sup>(٦)</sup>، ووهبة الزحيلي من المفسرين المعاصرين<sup>(٧)</sup>.

د. وقال رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ): «مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ» (البقرة: ١٨٩) مَعْنَاهُ أَنَّهُ مُوَافِقٌ لَهُ فِي التَّوْحِيدِ وَأُصُولِ الدِّينِ وَمَقَاصِدِهِ<sup>(٨)</sup>. وبهذا قال الطبري<sup>(٩)</sup>، والقرطبي<sup>(١٠)</sup>.

١- ويتضمن هذا القسم في الآية ٤٦ من سورة المائدة.

٢- تفسير التحرير والتنوير، للطاهر ابن عاشور ٢١٩/٦.

٣- ويتضمن هذا القسم في سورة البقرة الآيات ٤٠-٩١-٩٧، وسورة آل عمران الآية ١، وسورة النساء الآية ٤٧، وسورة المائدة الآية ٤٨، وسورة الأنعام الآية ٩٤، وسورة يونس الآية ٢٧، وسورة يوسف الآية ١١١، وسورة فاطر الآية ٢١، وسورة الأحقاف الآية ١٢.

٤- جامع البيان عن تأويل أي القرآن، لابن جرير الطبري، ١/٥٩٩.

٥- محاسن التأويل، للقاسمي ١/٣٢٩.

٦- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/٤٢٥.

٧- التفسير المنير ٢/١٥٩.

٨- رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم ١/٣١٠.

٩- جامع البيان عن تأويل أي القرآن ٢/٢٥٦، ٢٩٩.

١٠- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/١٠-١١.

هـ. وقال الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ) : والمراد من كون القرآن مصدقاً لما معهم أنه يشتمل على الهدى الذي دعت إليه أنبياءهم من التوحيد والأمر بالفضائل واجتناب الرذائل وإقامة العدل ومن الوعيد والوعد والمواعظ والقصاص فما تماثل منه بها فأمره ظاهر وما اختلف فإنما هو لاختلاف المصالح والعصور مع دخول الجميع تحت أصل واحد .

ومما يشمله تصديق القرآن لما معهم أن الصفات التي اشتمل عليها القرآن ودين الإسلام والجائي به موافقة لما بشرت به كتبهم فيكون وروده معجزة لأنبيائهم وتصديقاً آخر لدينهم وهو أحد وجهين ذكرهما الفخر والبيضاوي فيلزم تأويل التصديق بالتحقيق لأن التصديق حقيقة في إعلام المخبر<sup>(١)</sup> .

و. وقال الطبري: يعني بذلك القرآن أنه مصدق لما كان قبله من كتب الله التي أنزلها على أنبيائه ورسله، ومحقق ما جاءت به رسل الله من عنده، لأن منزل جميع ذلك واحد، فلا يكون فيه اختلاف، ولو كان من عند غيره لكان فيه اختلاف كثير<sup>(٢)</sup> .

وقال في موضع آخر من تفسيره: صدق هذا الكتاب ما قبله من كتب الله التي أنزلها على أنبيائه قبلك، لم يخالفها دلالة ومعنى، نورا وهدى للناس<sup>(٣)</sup> .

و يمكن إجمال حاصل هذه المعاني فيما يلي:

١. التظيرُ والمِثْلُ.

٢. الموافقة والمطابقة.

١- التحرير والتنوير، لابن عاشور، م ١/ج ١/٤٥٨-٤٥٩.

٢- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري ١٨٠/٥.

٣- نفسه ٤٠٢/٩.

٣. التّقرير والتّحقيق.

٤. الامتداد والتوحيد والشمولية.

٥. النصر والتأييد وعدم المخالفة.

٦. التعريف والبيان والإظهار والإحياء.

فلا غرو أن تكون هذه المعاني كلها من دلالات التصديق الذي هو محدد من محددات علاقة الكتب السماوية التي هي من مشكاة واحدة، وبين رسل الله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام المرسلين جميعا من الله الأحد. فالكتب اللاحقة امتداد للسابقة، مبينة صدق ما جاء فيها، ثم مبينة عدم اختلافها وأنها جاءت بمثلها في أصلها إحياء وإتماما. وكذلك الشأن بالنسبة لرسل الله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام لا يخالف بعضهم بعضا، وهم مؤيدون ومناصرون لبعضهم البعض.

## المبحث الثاني: مدار التصديق في القرآن الكريم.

ورد لفظ التصديق (بصيغه الفعلية «صَدَّق»، والاسمية «مُصَدِّق»، والمصدرية «تصديق») في القرآن الكريم ٢٣ مرة، توزعت على ١١ سورة مكية ومدنية (البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، يونس، يوسف، القصص، فاطر، الأحقاف، الصف). وقد سُجِّلَتْ أعلى نسبة لحضوره في سورتَي البقرة وآل عمران (الزهاوين)، وهما السورتان اللتان عمودهما الإيمان والإسلام، وهو مدار التصديق في القرآن الكريم نفسه، فالتصديق، كما جاء في القرآن الكريم، موزع على محاوره الثلاثة:

١. تصديق النبيين لبعضهم البعض.

٢. تصديق الكتب السابقة لبعضها البعض.

٣. تصديق القرآن الكريم لما سبقه من كتب الوحي؛ هو موافقة الكتب السماوية لبعضها البعض فيما جاءت به من أصول الدين، وكذا موافقة الأنبياء لبعضهم البعض فيما جاؤوا به من الإسلام والإيمان وفيما أمروا به من الإبلاغ وتوصيل القول، وفيما أخبروا به من الإنذار والتبشير، وغير ذلك كما سنرى فيما يتلو.

ولما كان العالم تحكمه ثنائية الخالق والمخلوق، وحيث إن الخالق يعلو المخلوق بالتفرد بالخلق والإيجاد ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۖ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (الأعلى: ٢-٣)، وهو أعلم بمن خلق ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٤)، وحيث لا علم للمخلوق إلا ما علمه الله إياه ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: ٧٨) ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وإذ إن العبثية منفية عن الخلق ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٥)، ولما كان المخلوق عاجزا عن إدراك الخالق

ورؤيته ومخاطبته ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام: ١٠٣)، فقد جعل الله عز وجل وحيه ورسله هما الصلة الواصلة بينه تعالى وبين خلقه لإبلاغهم كلامه تيسيرا منه سبحانه، وتبصرة لهم بهديه وبنوره الذي أنزله لعباده ليمشوا به نحو التي هي أقوم<sup>(١)</sup>.

فكانت الغاية التي من أجلها أنزل الله الكتب، وأرسل الرسل وبعث الأنبياء، هي الإيمان بالله ربا خالقا موجدا، أرسل رسله بالحق وأنزل كتبه بالحق وهو الحق ودينه الحق، فهو الذي يجب أن يعبد وهو الذي يجب أن يحمد، فالوجهة إليه والقبلة إليه والمنتهى إليه ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ (النجم: ٤٢)، والطريق إليه صراطه المستقيم الذي خطه لعباده في كتبه ووحيه المنزل، واجتنبى إليه رسله وهداهم إليه ﴿وَأَجْنِبْتُمْ وَهْدِيَتَهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الأنعام: ١٦١)، وأمهم بأن يدلوا عباده عليه، فقد جاء على لسان عيسى عليه السلام وهو يخاطب قومه لما كان في المهدي بعد صبيبا ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (مريم: ٣٦)، وجاء على لسان إبراهيم عليه السلام وهو يدعو أباه ﴿يَتَّبِعْتَنِي فَإِنَّهُ كَانَ مِنَ الْغَالِبِينَ﴾ (مريم: ٤٣)، وقال عز وجل مخاطبا رسوله الكريم محمدا ﷺ لما أعرض الناس عن الذكر الذي جاءهم به ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (المؤمنون: ٧٣)، وبهذا أخذ العهد على بني آدم بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وربط الإيمان به سبحانه بالإيمان برسله وأنبيائه وكتبه جميعا دون تفرقة ولا خيرة ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ

١- هذا عن التواصل من الأعلى إلى الأسفل، أما التواصل من أسفل إلى أعلى أي اتصال المخلوق بالخالق، فيتمثل في الدعاء والصلاة وسائر أنواع العبادات لله، فهو سبحانه مطلع على قلوب عباده يسمع ويرى السر والعلن.

لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿ (البقرة: ١٣٦)، بل أكثر من ذلك لقد أخذ الله الميثاق على الأنبياء أنفسهم بأن يؤمن بعضهم ببعض وينصر بعضهم بعضا، فالكل منه سبحانه واليه، ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَأَمِنَا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿ (آل عمران: ٨١ - ٨٤)، ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿ (الصافات: ٢٧)، ﴿وَأَخِي هَارُوتُ هُوَ أَفْضَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿ (القصص: ٢٤)، وهو ميثاق يلزم الأنبياء كما يلزم من آمن بهم ﴿وَمَرْيَمُ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ فِيهَا كُتُبٌ مِّنَ الْقُرْآنِ ﴿ (التحریم: ١٢)، ﴿ءَأَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِءَ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِءَ وَكُتُبِهِءَ وَرُسُلِهِءَ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِءَ ؕ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿ (البقرة: ٢٨٥).

فالإيمان بالله يستوجب الإيمان بالكتاب كله ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ ﴿ (آل عمران: ١١) وبالرسل جميعا ملائكة وبشرا، وأن هذه الحياة الدنيا معبر، وأن إلى الله الرجعى فينبئى الناس بما كانوا يعملون وفيما كانوا يختلفون. وهذا هو دين الله الذي جمع الأنبياء والرسل، ووجد الكتب، وأسلم بمقتضاه جميع الرسل والأنبياء طاعة لله، وإذعانا له سبحانه.

فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله دون تفرقة ولا تمييز هو الإسلام



عينه الذي ارتضاه الله ديناً لخلقه ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ (آل عمران: ٨٣)، ودانت به حتى الجن لله، وشهدت لما أنزل القرآن بأنه مصدق لما قبله ويهدي إلى الصراط المستقيم الذي جاءت معاملة في الكتب السابقة، فقالوا ﴿قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الأحقاف: ٣٠).

وإمعاناً في إظهار مركزية التصديق، فقد جعل القرآن الكريم التفرقة بين الله ورسله والإيمان ببعضهم، والكفر ببعضهم الآخر هو الكفر الحق كما قال تعالى في محكم تنزيله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سُبُلًا ۗ ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ۗ ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ١٥٠ - ١٥٢).

وجعل الله سبحانه من علامات الرسوخ في العلم الإيمان بما أنزل على نبي الختم وبما أنزل من قبله فقال عز من قائل: ﴿لَنِكَرَاتُ الرِّسَالُونَ فِي الْعِلْمِ مَنَّهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ١٦٢)، وهؤلاء الراسخون يشهدون بوحدة الدين جوهرًا واعتقادًا وتمايزه تنزلًا على مختلف السياقات، وهو قوله تعالى: ﴿سَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (الشورى: ١٣)، كما يشهدون بوحدة الأنبياء ووحدة الصراط الذي دعوا إليه وساروا عليه، ويدعون الله بأن يهديهم إليه

في صلاتهم سبع عشرة مرة في اليوم وهم يقرأون فاتحة الكتاب التي لا تصح الصلاة إلا بها ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (الفاتحة: ٦ - ٧) ، وفي موضع آخر من القرآن الكريم يفصل الله عز وجل هؤلاء المنعم عليهم ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ (مريم: ٥٨) ، وقوله سبحانه: ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ (النساء: ٦٩) .

يتضح مما سلف أن مدار التصديق في الموارد التي ورد فيها في القرآن الكريم، سواء في سياقاتها القريبة أو البعيدة، ارتبط بقضية الإيمان في العالمين الغيبي والمشهود، وشمل الإيمان بالكتاب المنزل، وبالرسول المرسل سواء من الملائكة أو البشر عبر كل الأزمان وفي كل الأقسام، إيماناً يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالإيمان بالله واليوم الآخر ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالِكُنَّبِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِن قَبْلُ ء وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ ء وَرُسُلِهِ ء وَاليَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿ (النساء: ١٣٦) ، فالذين يؤمنون بالله واليوم الآخر يؤمنون بالكتب جميعاً وأنها من عند الله الذي عنده أم الكتاب يمحو ما يشاء ويثبت، ويؤمنون بالرسول جميعاً الذين ثبت عبر التاريخ الذي سجله القرآن الكريم أن الله ما أخذ قوماً وما حاسبهم إلا بعد إرسالهم إليهم ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (الإسراء: ١٥) ، ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ ء آيَاتِنَا ﴾ (القصص: ٥٩) ، فما كان للإنسان أن يعرف ربه، ولا شيئاً عن حياته الفانية ولا الباقية إلا بإنزال الوحي وإرسال الرسل، فالوحي هو الذي يمد الإنسان بالتصورات عن نفسه وعن الكون، عن عالم الغيب والشهادة.

كما نجد الدعوة للإيمان جلية في الموارد التي ورد فيها لفظ التصديق، في مثل قوله تعالى مخاطبا بني إسرائيل في شأن الكتاب الخاتم: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا آتَيْنَاكَ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ﴾ (البقرة: ٤١)، وقوله عز وجل على لسان عيسى ﷺ وهو يخاطب بني إسرائيل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُمُ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٤٩) ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بِيَدِي مِنَ التَّوْرَةِ وَلَا أُحِلَّ لَكُم بَعْضُ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (٥٠) ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (آل عمران: ٤٩ - ٥١)، وقوله سبحانه مخاطبا الأنبياء جميعا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨١) ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران: ٨١ - ٨٢)، وقوله سبحانه مخاطبا أهل الكتاب: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ (النساء: ٤٧)، وقوله سبحانه رابطا الإيمان باليوم الآخر بالإيمان بالقرآن الكريم: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (الأنعام: ٩٢)، كما يظهر الاقتران بين الإيمان والتصديق في قوله سبحانه مفصلا في شأن كتاب الختم: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يَتْرُقَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٧) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأَنزَلْنَاهُ سُورَةً مِّثْلَهُ وَادْعُوا مَن أَسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨) ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَا تَهُم تَأْوِيلَهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٩) ﴿وَمِنَهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنَهُم مَّن لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس: ٣٧ - ٤٠)، وهذا الاقتران بين التصديق والإيمان يظهر كذلك في ربط الانتفاع بهدي القرآن

ورحمته بإدراك كونه مصدقا لما بين يديه وذلك في قوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف: ١١١).

وكما ورد التصديق في معرض المقابلة بين الذين آمنوا والذين كفروا بالكتاب فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا أَفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيًّا يُسْنِدِرُ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشْرِي لِلْمُحْسِنِينَ﴾ (الأحقاف: ١١ - ١٢)، وقوله سبحانه مشهرا لللعنة على الذين كفروا بالكتاب المصدق لما معهم: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٨٩)، وقوله سبحانه فيمن عادى رسله وملائكته ونبذ كتبه: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا بَدَّهٖ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَدَّ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٩٧ - ١٠١)، وقوله سبحانه مقرا وحدة

الكتب المنزلة من عنده وأن الكفر بأحدها كفر بآيات الله: ﴿الْعَمَّ ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلِ هٰذِهِ لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ (آل عمران: ١ - ٤)، وقوله سبحانه في ذم الذين كذبوا بالبينات، ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا

بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ النُّورَيْنِ وَمُبَشِّرًا رَسُولِي يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ  
مُسِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
الظَّالِمِينَ ﴿ (الصف: ٦ - ٧) .

## المبحث الثالث: أقسام التصديق

باستقراء مواضع ذكر التصديق في القرآن يتبين أن التصديق ليس على ضرب واحد بل على ثلاثة أضرب مرتبطة فيما بينها ارتباطاً وثيقاً تكاملياً وهي كالآتي:

### (١) تصديق النبيين لبعضهم البعض:

قبل أن ينزل الله وحيه ويرسل رسالاته، يختار رسوله ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ (طه: ١٣)، ويجتبي من صفوة البشر رسلاً لحمل رسالاته وإبلاغها للناس فوصفهم الله في كتابه بخير الأوصاف من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ (مريم: ٥٦ - ٥٧)، وقوله سبحانه: ﴿وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص: ١٧)، وقوله سبحانه: ﴿وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ (ص: ٤٨)، وقوله سبحانه: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (مريم: ٤١)، وقوله سبحانه: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ (مريم: ٥١)، وقوله سبحانه: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ (مريم: ٥٤ - ٥٥)، وقال عز وجل في حق خاتم الرسل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤، فهؤلاء الرسل والأنبياء حملة الوحي ومبلغوه هم القدوة والأسوة لمن أرسلوا إليهم، لذلك كانوا هم أول العاملين بالوحي والممتثلين لأوامر الله، فقد جاء على لسان شعيب عليه السلام وهو يخاطب قومه قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَخِيفَكُمُ إِلَىٰ مَا أَنْهَكُمُ عَنْهُ إِنِ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود: ٨٨)، وامثالهم هذا تيسير لإعمال الوحي في مجال الإنسان، فهم النموذج الذي يجب أن يحتدى ويعمل على شاكلته ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فِيمُهَدَاهُمْ أَقْتَدِهِ﴾ (الأنعام:

(٩٠). ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١)، فكانوا في هذا أمة واحدة يدعون إلى عبادة الله وحده، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيّمون الصلاة ويوتون الزكاة ويسعون إلى عمل الصالحات وفعل الخيرات، لا يسألون الناس أجرا ويفعلون ما يومرون ﴿يَقَوْمٌ آتَّيَعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٠). آتَّيَعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿ (يس: ٢٠-٢١).

وقد أخذ الله تعالى الميثاق على النبيين عليهم السلام بأن يصدق بعضهم بعضا ويومن بعضهم ببعض وينصر بعضهم بعضا، فقال عز من قائل: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَصْحَابِ الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَدْعُونَ أَتَّيَعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٠). آتَّيَعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿ (يس: ٢٠-٢١). ميثاق من أول مبعوث آدم ﷺ إلى آخر مبعوث محمد عليه أفضل الصلاة والسلام الذي ﴿جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الصفافات: ٢٧)، كما يستفاد هذا المعنى من قوله تعالى مخاطبا نبي الختم ﷺ: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مَنْ أُرْسِلُ﴾ (الأحقاف: ٩)، فمجيئه ﷺ هو عين تصديق الأنبياء من قبله وشهادة لهم بصدق نبواتهم فهو تاويل ما أخبروا وبشروا به في كتبهم كما جاء على لسان عيسى في قوله عز وجل: ﴿وَمُبَشِّرًا رَسُولٍ يُأْتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (الصف: ٦)، وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَإِنِّي جَاءَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْإِنْجِيلِ بِأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِذُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

فدور الأنبياء والرسل عليهم السلام هو دور تكاملي نحو كمال الدين وتمامه مصداقا لقول رسول الله ﷺ: «إِنَّ مَتَلِيَّ وَمَتَلِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي

كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلَا وَضِعَتْ هَذِهِ اللَّبْنَةُ، قَالَ: فَأَنَا اللَّبْنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ»<sup>(١)</sup>.

## ٢) تصديق الانجيل للتوراة:

فيما يخص التصديق بالنسبة للكتب السابقة على القرآن الكريم، لم يرد سوى ذكر الإنجيل وتصديقه للتوراة في موضع واحد هو ﴿وَأَتَيْنَهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٤٦)، وفي ثلاث مواضع أخرى يرد تصديق عيسى عليه السلام لما بين يديه من التوراة وهي قوله سبحانه: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَا حِجْلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتَكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (آل عمران: ٥٠)، وقوله سبحانه: ﴿وَقَفَّينَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَأَتَيْنَهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٤٦)، وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (الصف: ٦).

والإنجيل آخر الكتب السماوية قبل القرآن الكريم، فبعد توالي الأنبياء العاملين بالتوراة من بعد موسى عليه السلام، وبعد طول العهد بين بني إسرائيل وبين كتابهم التوراة، وقع فيه التحريف والتبديل وأصبح منكرا بينهم لا يعرفه إلا الأبحار والرهبان (لكنهم يكتمونونه)، فجاء الإنجيل موافقا لما جاءت به التوراة، محييا لأحكامها من جديد وكاشفا للنور والهدى الذي تم طمسه وكتمانه وهذا عين تصديقه لها، لكن القصة تتكرر من جديد فيؤمن به من آمن من بني إسرائيل ويكفر به من كفر، ويقع التحريف والتبديل والإخفاء

١- صحيح البخاري «كتاب المناقب»، «باب خاتم النبيين عليه السلام»، ح ٢٢٩٤.



من جديد، ويضيع الأصل الحق للكتاب، ويعيش الناس تحت رحمة الذين اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا، يحلون لهم ما يشتهون، ويحرمون عليهم ما يكرهون، حفاظا على مصالحهم ومكانتهم ونفوذهم في المجتمع. فكانت بعثة عيسى عليه السلام، ومجيئه بالإنجيل، تمهيدا للمرحلة الخاتمة من الوحي، فهو عليه السلام، جاء مصدقا لما قبله، ومبشرا بما يأتي بعده، فالإيمان بعيسى عليه السلام، واتباع النور الذي جاء به من بعد التوراة، يقتضي حتما، الإيمان بما بشر به عليه السلام، وأخبر به، مصدقا لقوله عز وجل: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ (الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧). وبهذا جاء القرآن الكريم، الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، محييا لكل ما اندرس، ومبينا لكل ما خفي من الوحي الذي سبقه، كما سنرى فيما يخص تصديق القرآن الكريم لما بين يديه من الكتاب.

### ٣) تصديق القرآن الكريم لما بين يديه؛

شغل ذكر تصديق القرآن الكريم لما بين يديه من الكتاب الحيز الأكبر من مواضع ذكر لفظ التصديق، فجاء مقيدا أثناء مخاطبة بني إسرائيل ودعوتهم للإيمان بما أنزل بحجة أنه (مصدق لما معهم) وما مع بني إسرائيل هو الكتب التي أنزلت إليهم؛ التوراة، والزيور، والإنجيل، وتكررت هذه الصيغة المقيدة للتصديق أربع مرات، ثم جاء في موضع واحد مقترنا بكتاب موسى عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۗ وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ (الأحقاف: ١٢، وفي موضع آخر مقترنا

بذكر التوراة والإنجيل معا في قوله عز وجل: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴿٤﴾ ) (آل عمران: ٣ - ٤) ، فذكر سبحانه أن القرآن الكريم ليس مفترى، وإنما مصدق لكتاب موسى من قبله في الإمامة والرحمة، ومصدق للتوراة والإنجيل في الهدى الذي جاء به للناس. ثم جاء مطلقا في قوله عز وجل: ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ وهذه الصيغة الإطلاقيه تكررت ثماني مرات، وفي موضع واحد من سورة المائدة جاءت محددة بـ ﴿ مِنْ أَلْكِتَابٍ ﴾ في قوله عز وجل: ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ أَلْكِتَابٍ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (المائدة: ٤٨) ، والكتاب هنا جاء معرفا بـ «ال» التي تعني أن التصديق ينصرف لكل ما أنزل من كتاب الوحي في الهدى والرحمة والإنذار والتبشير للناس، وفي هذا الموضع الوحيد من القرآن الكريم جاءت الهيمنة مقترنة بالتصديق، أي إن القرآن الكريم مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه، والهيمنة تعني الشهادة والحفظ، كما سنرى في الفصل الثاني من هذا الباب، ولولم يكن القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب لما كان مهيمنا عليه، فالهيمنة مرتبطة بالتصديق وقائمة عليه.

فالقرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية نزولا وتنزلا، نزل بالحق من المشكاة نفسها التي نزلت منها صحف إبراهيم، وتوراة موسى، وزبور داود، وإنجيل عيسى، وما أرسل به الأنبياء والرسل جميعا عليهم السلام، مشكاة وحي الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، مصداقا لقوله سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (يونس: ٣٧) ، وقوله سبحانه في حق القرآن المجيد ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف: ١١١) ، فهذا الكتاب الخاتم لم يخرج عن ناموس الوحي وإنما هو آخر حلقة من حلقات وحيه سبحانه. فالله عز وجل هو مرسل الرسل، ومنزل الوحي،

يختار لكل وقت ومن كل قوم رسولا، ولكل زمن كتابا، فللوهي والرسول دور محوري في حياة المجتمعات ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٤).

والبشرية اليوم أقرب عهدا بالقرآن الكريم بمقتضى قوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)، بعد أن ثبت عبر كل فترات الوحي المتعاقبة وبیم يدي مختلف الأزمنة والأمكنة، أن البشر لا يمكن أن يضطلعوا بمهمة الحفظ.

فجاء كتاب الختم مستوعبا لكل ما سبق، ومتجاوزا لكل أنواع الشوائب التي شابت ما قبله، فجمع تراث النبوات إحياء وحفظا وتبيانا، وفرقانا بين الحق والباطل، وتفصيلا. فوظيفة القرآن بالنسبة لما قبله من الوحي هي وظيفة إحيائية، ويظهر هذا في آيتين كريمتين حيث ربط الله عز وجل إنزال القرآن بإنزال الماء من السماء الذي يحيي الأرض بعد موتها، وذلك في قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ آٰلِحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿١٦﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ ءَايَاتِنَا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الحديد: ١٦ - ١٧) وقوله عز وجل: ﴿حَمَّ ﴿١﴾ نَزَّلُ الْكِتَابَ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ءَايَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَابِّهِ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُؤْفِكُونَ ﴿٤﴾ وَأَخْلَفَ بُرُوجَ النَّهَارِ وَمَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِآيٍ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (الجنات: ١ - ٦). وبهذا الجمع والإحياء لوهي الأولين والآخرين كان القرآن الكريم أهلا ليكون كتاب العالمين.

وسنروم في المبحث الموالي تبيان، ما وسعنا ذلك، كيف أن القرآن أحيى تراث النبوات، وصدق ما جاء في الكتب قبله، وأنه لم يكن كتابا بدعا وإنما هو كتاب موافق لما أنزل قبله من مشكاة الوحي التي هي واحدة مصدرها الله الواحد الأحد.

## المبحث الرابع: تجليات التصديق في القرآن الكريم ومظاهره

يتجلى التصديق في القرآن الكريم في تثبيت أصول الدين وإقرار وحدتها وثباتها عبر كل الرسالات، وأن جميع الأنبياء أمروا بها وبتبليغها إلى الناس. نجد هذا يتكرر في القرآن مع ذكر كل الأنبياء والرسول ودعوتهم لأقوامهم وقصصهم، بل يؤكد القرآن بأن بقاء الأمم وصلاحها يكون ببقاء هذه الأصول والإيمان بها، وكلما فرطت أمة في أصل من هذه الأصول أو بها جميعاً حل بها الدمار والفساد. وهذه الأصول هي:

### (١) إثبات التوحيد وتقريره:

وتوحيد الله يعني أن الله وحده الجدير بالعبادة، والخوف والرجاء، والطاعة والامتثال لأوامره، بدون شريك، ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا نَتَّخِذُ أَوْثَانًا إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارِهُونَ ٥١﴾ وله ما في السموات والأرض وله الدين واصباً أغير الله نتقون ﴿٥٢﴾ وما يكفركم من نعمته فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجشرون ﴿٥٣﴾ ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم يرمهم يشركون ﴿٥٤﴾ ليكفروا بما ءاتينهم فتمتعوا فسوف تعلمون ﴿ (النحل: ٥١ - ٥٥) ، فهو سبحانه المعطي المانع، الضار النافع، المبدئ المعيد... فحق أن يعبد وأن يحمد وأن لا يشرك به، ولتوحيده نزل الوحي ﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ لِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذُكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (إبراهيم: ٥٢) ، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ١١٠﴾ (الكهف: ١١٠) ، وبتوحيده سبحانه أمر جميع الأنبياء والرسول ﴿ إِن هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: ٩٢) ، ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ (الزمر: ١١) ، وأوصوا به أبناءهم وأهلهم، فهذا لقمان يوصي ابنه ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّكَ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان: ١٣) ، وأوصى به يعقوب أبناءه ﴿ أَمْ

كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿البقرة: ١٣٣﴾، وإبراهيم وهو يعظ أباه ﴿يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿مريم: ٤٣ - ٤٤﴾، ودعوة الناس إلى توحيد الله وعدم الشرك به دعوة تتكرر على لسان جميع الأنبياء ﴿يَقُومُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ﴿الأعراف: ٥٩﴾، ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ (النساء: ٣٦)، فالغاية التي من أجلها خلق الله الخلق هي العبادة، عبادته سبحانه وحده ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)، وبهذا عهد إلى بني آدم ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىٰءَ آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦١﴾ وَأَن أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (يس: ٦٠ - ٦١)، ولذلك كانت الغاية التي من أجلها أنزل الله الكتب وأرسل الرسل هي أن يعرفوا خلقه سبحانه ربهم ويفردوه بالعبادة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥)، ولهذا كان أكبر هدف لدى الأنبياء والرسل عليهم السلام في كل زمان وفي كل بيئة هو «تصحيح العقيدة في الله تعالى وتصحيح الصلة بين العبد وربّه، والدعوة إلى إخلاص الدين وإفراد العبادة لله وحده، وأنه النافع الضار المستحق للعبادة والدعاء والاتّجاء والنسك وحده»<sup>(١)</sup>.

ونجد هذا على لسان جميع الأنبياء الذين ذكروا في القرآن الكريم، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْآسِمْ ﴿هود: ٢٥ - ٢٦﴾، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿المؤمنون: ٢٣﴾،

١- النبوة والأنبياء، لأبي الحسن الندوي، ص ٣٥، المختار الإسلامي، القاهرة، ط. ٤/١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

﴿ وَإِذْ يَرْهَىٰ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ يَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُواهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمْرٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْأَمِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَعْبُدُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿العنكبوت: ١٦ - ٢١﴾. ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ آخَاهُمْ هُوْدًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْرَقُونَ ﴿هود: ٥٠﴾، ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ آخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ نُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿هود: ٦١﴾، ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ آخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴿الأعراف: ٨٥﴾ ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَىٰ اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿النحل: ٣٦﴾، ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿المؤمنون: ٢١ - ٢٢﴾ ﴿ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿الزمر: ٦٦﴾، عبارة واحدة توحيدية تتكرر مع جميع الأنبياء ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾، ما للخلق إله غير الله، هو الله الواحد الأحد.

وهذه الدعوة إلى التوحيد كانت مفتح دعوة كل نبي ورسول، فكان توحيد الله عز وجل هو أول ما يدعون إليه، ولا يتجاوزونه إلى غيره من أصول الدين حتى يتقرر. ونجد هذا جليا في سنة رسول الله ﷺ وهو يعلم صحابته منهج الدعوة إلى الله، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ

لما بعث معاذًا رضي الله عنه على اليمن قال: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة من أموالهم وترد على فقرائهم فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس»<sup>(١)</sup>. فأمره رضي الله عنه بأن لا ينتقل معهم إلى الركن الثاني الذي هو الصلاة حتى يقرؤا بالركن الأول الذي هو التوحيد فإن لم يقرؤا بالركن الأول الذي هو التوحيد فلا حاجة إلى دعوتهم إلى الأركان الأخرى، لأن مدار الدعوة إلى الله على التوحيد، بل إن الجهاد كان في سبيل إعلاء كلمة «لا إله إلا الله» وتحرير الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد الأحد، وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»<sup>(٢)</sup>.

فالتوحيد هو الرؤية التي تُفسّر العالم، وتسفر عن أوجه العلاقة بين الإنسان وربّه وبين الكون وسائر المخلوقات. والإنسان بمقتضى الرؤية التوحيدية مسؤول تجاه خالقه الذي خلقه وأوجده وقدره وجعل له السمع والبصر والفؤاد وعلمه ما لم يكن يعلم، ومسؤول تجاه نفسه والغاية التي من أجلها وجد، وسعيه نحو بلوغها، ومسؤول تجاه سائر المخلوقات التي سخّرت له بما في ذلك الشمس والقمر، ومسؤولية الإنسان هذه هي التي تمكن الإنسان من الدخول في موكب الساجدين ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ،

١- الحديث أخرجه مسلم في صحيحه (٥١/١)، كتاب الإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩).

٢- الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، حديث رقم (٢٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، محمد رسول الله، حديث رقم (١٢٨).

مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ  
وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴿ (الحج: ١٨) ، فيكون الكون كله مسرحا لإرادة الله .

## ٢) إثبات إرسال الأنبياء والرسول:

فهم صفوة الخلق الذين اختارهم الله واصطفاهم لإبلاغ رسالاته وتوصيل  
قوله إلى عباده، وهم الأدلاء على الطريق الموصل إليه سبحانه، والعارفين به  
حق المعرفة، وهم حلقة الوصل بين عالم الغيب والشهادة، وهم الذين يسر  
الله بالسننهم وحيه إلى عباده ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ (مريم: ٩٧)،  
وتتابع إرسالهم عبر الزمان والمكان، ولم تخل أمة من الأمم إلا وأرسل  
فيها رسول بشيرا ونذيرا ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر: ٢٤)،  
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (النساء: ٦٤).  
فلرسل دور محوري في حياة المجتمعات، وقد ربط سبحانه كما أشرنا في  
مبحث سابق الإيمان به بالإيمان برسله وأنبيائه، وربط مصير الأمم التي  
بعث فيها الأنبياء والرسول باتباعهم إياهم أو عصيانهم، فإما اتباع وطاعة  
فضلاح وصلاح، وإما عصيان وطغيان فهلاك ودمار، وهذه سنة الله مع  
جميع أنبيائه ورسله والأقوام والأمم التي بعثوا فيها، «فلا تفلح أمة مهما  
أوتيت من الحول والطول والذكاء والوسائل، ومهما تقدم الزمان وتقدمت  
الحضارة وتنوعت الفلسفات وتغيرت الأحوال إلا باتباع النبي الذي أرسل  
إليها والحب له والانتصار لدعوته، رضيت بذلك أم أبت، وكل أمة تحاول  
أن تنال العزة والسؤدد والكرامة والقوة الحقيقية من غير هذا الطريق،  
معتمدة على سياستها الحكيمة، أو الانضمام إلى معسكر من المعسكرات  
القوية، فلن يكون ذلك وليس عاقبتها إلا الذل والهوان والإخفاق الذريع  
والانشقاق الداخلي والخيبة عاجلا أو آجلا»<sup>(١)</sup>.

١- النبوة والأنبياء، مرجع سابق، ص: ٧٩-٨٠. بتصرف.



ودعوة القرآن إلى اتباع الأنبياء والرسول وطاعتهم صريحة في قوله عز وجل: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (النساء: ٦٤). وهذه الطاعة ليست كطاعة أي بشر من البشر، إنها طاعة مشفوعة بحب كحب الله أي أن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد وأقرب إلى قلبه مما سواهما بما في ذلك ماله وولده، الحب الذي يوصل إلى درجة التقاني في الطاعة «لأن الطاعة الكاملة المخلصة والتخلق بأخلاق الرسول والانصياع بصبغته وإيثار شريعته ورضاه على هوى النفس والعادات والأعراف، وبذل المهجة والنفس والنفيس في سبيل دعوته، لا يتأتى إلا بهذا الإجلال المنبعث من أعماق القلب، والحب العميق الذي يملك على الإنسان مشاعره، ويستولي على قلبه ولذلك قال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (التوبة: ٢٤)، ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم من أحرص الناس على طاعته وأسرعهم إليها وأنشطهم فيها، وأصبرهم عليها، ولهم في ذلك القدر المعلى والنصيب الأوفر إلى يوم القيامة... ولذلك كله استطاعوا أن يضعوا رؤوسهم ومهجهم على أكفهم وراحاتهم، وهانت عليهم الحياة، وطابت لهم هجرة الأوطان وهجر الإخوان، والشهادة في سبيل الله»<sup>(١)</sup>، وهذا مثلهم في سائر الأزمان مع جميع الأنبياء، فخيرة الناس في زمن كل رسول هم صحابته، كما يتبين من خلال قوله عز وجل: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَبَّصُوا سَجْدًا يَلْتَعِنُونَ فَضَلَّ مِنْ اللَّهِ وَرِضُونًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ ﴾ (الفتح: ٢٩)، وهذا حال

١ - النبوة والأنبياء، ص: ٦٧-٦٩، بتصرف.

أتباع كل نبي السبق في الاستجابة والامتثال والطاعة. وكيف لا تكون هذه الطاعة والاستجابة لمن جاء لا يطلب أجرا ولا مالا، وإنما جاء مبلغا وبشيرا ونذيرا، ومحيطا بما لم يحيطوا به علما.

والفرق واضح بين العلم النبوي والعلم البشري المكتسب، فالعلم النبوي هو «علم النجاة» الذي يحتاجه كل سالك لدروب الحياة أفرادا ومجمعات وأمما، علم يبين طريق السعادة في الدارين والفلاح فيهما، وطريق الشقاء، وما يصلح الإنسان وما يفسده، ولهذا لم يكونوا يسألون الناس عليه أجرا فهو علم من الله عز وجل إلى عباده وإنما عليهم البلاغ، ونجد هذا المعنى حاضرا في دعوة الأنبياء لأقوامهم ويكاد يتكرر على السنة جميع الأنبياء ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾﴾ (الشعراء: ١٠٥ - ١١٠)، ﴿كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١١٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٧﴾﴾ (الشعراء: ١٢٣ - ١٢٧)، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ (الشعراء: ١٤٠ - ١٤٥)، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾ (الشعراء: ١٦٠ - ١٦٤)، ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ (الشعراء: ١٧٦ - ١٨٠)، ليس صدفة ولا مصادفة أن ينطق الأنبياء والرسول

بالعبارات نفسها رغم تباعدهم في الزمان والمكان، إنها دعوة واحدة إلى تقوى الله وطاعة رسوله واتباعه، وكون أي رسول لا يسأل الناس أجرا وهو أول العاملين بما يدعو الناس إليه ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَيْكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ (هود: ٨٨)، مُسَوِّغٌ كَافٍ لِاتِّبَاعِهِ كَمَا جَاءَ عَلَىٰ لِسَانِ الرَّجُلِ الَّذِي جَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى اسْتِجَابَةَ وَتَلْبِيَةَ لِنْدَاءِ الرَّسُولِ وَلِلْحَقِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ، فَقَالَ وَهُوَ يَخَاطِبُ قَوْمَهُ رَغْبَةً مِنْهُ أَنْ يَتَّبِعُوا مَا أَقْرَأَ وَاسْتَقَرَّ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْحَقِّ ﴿يَقَوْمُ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (يس: ٢٠ - ٢١).

وهكذا نجد الأنبياء والرسل هم أهدى الناس، وأعملهم بالهدي الذي جاءوا به للناس، لأن المقصد الأعظم من إرسال الرسل هو بيان الحق من أجل اتباعه لئلا يكون للناس على الله حجة، فيقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاءهم ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (النساء: ١٦٥)، وقال عز وجل: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ. وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ. وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نَزَرَ وَازِرَةً وَزَرَ أَخْرَىٰ وَمَا كَأُ مُعَذِّبِينَ حَقًّا نَبَعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء: ١٣ - ١٥).

ويدخل في هذا القسم من أقسام الإيمان والإثبات، الإقرار برسول الله من الملائكة وهو من متعلقات التصديق كما أشرنا سابقا، مصداقا لقوله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٩٧ - ٩٨)، فحجة الرسل من الملائكة وتوقيعهم هو من محبة الله.

### ٣) إثبات مؤقتة الحياة الدنيا، والبقاء والخيرية للحياة الآخرة؛

فقد جعل الله الحياة الدنيا دار ابتلاء واختبار ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك: ٢)، وجعل الموت قنطرة عبور من الدنيا إلى الآخرة ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (العنكبوت: ٥٧)، وجعل الدار الآخرة درا جزاء للعاملين، وحياة باقية لمن أحسن عملا في هذه الحياة الدنيا ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص: ٨٣).

والإيمان بالآخرة أساس عقيدة الأنبياء والرسل، ومدار دعوتهم، بها كانوا يبشرون ومنها يندرون، فبعد الآخرة حاضر لدى الأنبياء في اعتقادهم كما يتجلى ذلك من خلال دعائهم وتوسلهم إلى ربهم، فهذا إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خِطِيئِي يَوْمَ الَّذِي بَرَّ رَبِّي﴾ (٨٢) ﴿هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقِ بِالصَّالِحِينَ﴾ (٨٣) ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٨٤) ﴿وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ (٨٥) ﴿وَأَغْفِرْ لَأَيِّئِ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٨٦) ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (٨٧) ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) ﴿إِلَّا مَنْ أتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء: ٨٢ - ٨٩)، ويوسف عليه السلام يقول: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّقِ بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف: ١٠١)، مؤمن آل فرعون يقول: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (٢٨) ﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْفِكْرِ﴾ (٢٩) ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أُنْثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (غافر: ٣٨ - ٤٠)، وقول سحرة فرعون لما توعدهم بالعذاب إثر إيمانهم بالحق الذي جاء به موسى عليه السلام: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَيَّ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٧٢) ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾

لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٧٦-٧٧﴾ (طه: ٧٢ - ٧٦)، ورسول ﷺ يقول: «اللهم إن العيش عيش الآخرة»<sup>(١)</sup>.

وحاضر أيضا في دعوة الأنبياء لأقوامهم، فهذا شعيب عليه السلام قد جاء على لسانه: ﴿يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَرْجُوا الْآخِرَ﴾ ﴿العنكبوت: ٣٦﴾، وقول نوح عليه السلام: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿الأعراف: ٥٩﴾، وقول هود عليه السلام: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿الشعراء: ١٥٢﴾، وقول محمد ﷺ مما علّمه ربه: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿الأنعام: ١٥﴾، وقوله عز وجل مخاطبا نبي الختم محمد ﷺ إنذارا لعشيرته الأقربين: ﴿يَأْتِيهَا النَّوْءُ قُلْ لَأَرْوِّجِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبِّيئَتَهَا فَتَعَالَيْتُمْ أَمْ تَتَعَبَّوْنَ سِرَالًا جَمِيلًا﴾ ﴿٢٨﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَالِدَارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿الأحزاب: ٢٨ - ٢٩﴾. ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ ﴿الأحزاب: ٢١﴾.

فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله يقتضي الإيمان بالآخرة، فهو ركن من أركان الإيمان بالله الذي خلق فسوى والذي إليه الرجعى، وهذا الإيمان هو الذي يضبط تصورات الإنسان للحياة والموت في إطار النشأتين، ويقود إلى الفلاح في الحياتين الأولى والأخرى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿البقرة: ٤ - ٥﴾، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ

١- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب التحريض على القتال، ح (٢٨٣٤). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، ح (١٨٠٥).

وَالصَّابِرِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ  
وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿ (البقرة: ٦٢).

فالإيمان بالله واليوم الآخر يحلّ لغز الكون، ويجيب عن الأسئلة الوجودية  
(من أين؟ ولماذا؟ وإلى أين؟)، وينفي العبثية عن الخلق ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ  
أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (المؤمنون: ١١٥)، ويربي في  
الإنسان الحس بالمسؤولية التامة بخصوص المصير الذي سيؤول إليه،  
ودوام استحضار الموقف بين يدي الله، وما يترتب عليه من حساب وجزاء  
وعقاب، وهذا ما يضبط تصويره للحياة الدنيا وعمله فيها، وقد جاءت  
الرسالات السماوية السابقة بهذه المضامين ﴿ أَمْ لَمْ يَبْنَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى  
﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَا نَزُرُ آوَزَةً وَزَرَ أُخْرَى ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا  
سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْرَهُ إِلَىٰ جَزَاءِ أَلْأَوْفَى ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ  
الْمُنْتَهَىٰ ﴾ (النجم: ٣٦ - ٤٢).

فنتيجة الإيمان باليوم الآخر، إذن، هي «امتزاج العلم به مع الاستعداد  
له، فهو غائب عن الحس لكنه حاضر بمشاهده في القلب، يؤثر فيما يأتيه  
الإنسان في العمل وما يذره، وتصير الحياة الدنيا سعياً للأخرة»<sup>(١)</sup>، وهذا  
الإحساس بالمسؤولية هو الذي يجعل من الإنسان دوماً محاسباً لنفسه  
مراقباً لأعماله ومبتغياً سبيل الصلاح، «وأهمية المحاسبة تأتي من كونها  
ما تفتأ دافعة إلى الاجتهاد، وتصويب الأخطاء واستدراكها، وكذا استكمال  
أوجه النقص، والتوق إلى الكمال، كما أنها تنأى بالإنسان عن أن يسقط في  
العجب والغرور المؤدبين إلى الطغيان ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴿٦﴾ أَن رَّأَهُ اسْتَعْتَفَ ﴾  
(العلق: ٦ - ٧)، ولذلك قال الله عز وجل إشارة إلى أهمية محاسبة النفس:  
﴿ وَلَا أُقِيمُ بِالنَّفْسِ اللُّؤَامَةِ ﴾ (القيامة: ٢)<sup>(٢)</sup>، فالإيمان بالأخرة رادع للأقوياء

١- د. أحمد عبادي، مفهوم الترتيل في القرآن الكريم، ص: ٢٤٦.

٢- المرجع نفسه، ص: ٢٤٧.

عن الطغيان والإفساد في الأرض، وسند للضعفاء المستضعفين في الأرض رجاءً منهم في عدالة الله العدل يوم الحساب والجزاء، يوم لا ظلم ولا جور، يوم يقوم الناس لرب العالمين: ﴿ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٨١).

والإنسان بموجب الهدى الذي في دعوات الأنبياء والكتب التي جاؤوا بها، ومهدت للوحي الخاتم، وجب أن يعي أن هذه الحياة الدنيا متاع، وأن الآخرة هي دار البقاء، ومن أجلها يعمل العاملون، وهذا حاضر في كثير من الآيات القرآنية التي تحض على تفضيل الآخرة وازدراء الدنيا واحتقارها، منها قوله عز وجل: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٧)، وقوله عز وجل: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (التوبة: ٢٨) وقوله سبحانه: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَنْقُوتُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعام: ٣٢)، وقوله سبحانه متوعدا بني إسرائيل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (البقرة: ٨٦)، وقوله سبحانه: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١١﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ (الأعلى: ١٦ - ١٩)، وهذه الآية تجمع ما جاء في الرسائل السماوية من إيثار الآخرة على الدنيا والسعي لها وتقر تصديق القرآن لها، فالرسالات السماوية جميعا دارت بعد التوحيد على إقرار الآخرة وتأكيدها والحشر والبعث، وما يتبع ذلك من جزاء وتواب أو عقاب، جنة أو نار. ففي القرآن الكريم، لا تكاد تخلو سورة من سوره. إلا بعض السور. من ذكر اليوم الآخر أو ما يدل عليه، وحفل القرآن الكريم بالاستدلال على اليوم الآخر والتمثيل له بالظواهر الكونية المشاهدة، فثلث القرآن أو ربه هو تأكيد ليوم البعث. والإيمان باليوم الآخر في القرآن الكريم شرط في الانتفاع بالدين وبالقرآن

الحكيم ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ (الإسراء: ٤٥).

هذه بعض تجليات التصديق فيما يخص أركان الإيمان التي تجمعها بداية سورة البقرة ونهايتها في قوله عز وجل: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ ﴾ (البقرة: ٣)، وقوله سبحانه في ختام السورة: ﴿ ءَأَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفِرُكَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (البقرة: ٢٨٥)، فقد افتتحت السورة بالإيمان الجامع، واختتمت بالإيمان الجامع، وما بين البداية والنهاية تفصيل لقضايا الإيمان الجامع.

#### ٤) أركان الدين والتشريع والأخلاق:

أما تجليات التصديق فيما يخص أركان الدين «الإسلام»، فنجد أن الأنبياء جميعاً أمروا بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والصوم، والحج وأمروا أقوامهم بذلك وفيما يلي عرض موجز لأهم هذه الأركان:

إن عبادة الله عز وجل أمر توحيدي بين البشر والجن جميعاً مصداقاً لقوله عز وجل: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴾ (الذاريات: ٥٦ - ٥٧)، وهو أمر توحيدي بين جميع الرسل والأنبياء عليهم السلام ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: ٢٥)، وأمر توحيدي بين جميع أتباع الرسل والرسالات السماوية ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ (آل عمران: ٦٤)، ومن مظاهر عبادة الله الأساسية ما يلي:

١- الصلاة، جاء الأمر بإقامة الصلاة في جميع الرسالات السماوية، فلقد ورد على لسان عيسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ



مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿ (مریم: ۲۱) ، وقوله عز وجل مخاطبا موسى ﷺ: ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ (طه: ۱۴) ، ولقمان إذ يعظ ابنه: ﴿ يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾ (لقمان: ۱۷) ، وقوله عز وجل على لسان إبراهيم ﷺ: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ (إبراهيم: ۳۷) ، ودعاؤه ﷺ: ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾ (إبراهيم: ۴۰) ، وقوله تعالى في حق ذرية إبراهيم ﷺ: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۗ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿ ۷۲ ﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ ﴾ (الأنبياء: ۷۲ - ۷۳) ، وقوله سبحانه مخاطبا نبي الختم ﷺ في غير ما موضع: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۗ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (العنكبوت: ۴۵) ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ ﴾ (هود: ۱۱۴) ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ (الإسراء: ۷۸) . بل إن إقامة الصلاة جاءت صفة ملازمة للمؤمنين في كثير من الآيات منها قوله عز وجل: ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ (إبراهيم: ۳۱) وقوله سبحانه ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (البقرة: ۳) ، إلا أن كيفية أدائها وأوقاتها وعددها اختلفت وتدرجت نحو مدارج الاكتمال من أمة إلى أخرى<sup>(١)</sup> ، لتكتمل مظاهرها مع مجيء الرسول المبشّر به أحمد ﷺ ، حيث استقرت على الكيفية التي أداها بها ﷺ بالمسجد الأقصى ليلة الإسراء إماما للأنبياء جميعا، والبشرية جمعا من بعدهم فقال عليه أفضل الصلاة والسلام: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»<sup>(٢)</sup> هيئة، وزمانا، ومكانا مصداقا لقوله عز وجل: ﴿ الْيَوْمَ

١- لم يذكر القرءان الكريم صورة للصلاة، إلا أنه ذكر في غير ما موضع بعض أركانها كالركوع والسجود القيام، وبعض الأوقات كدلولك الشمس وغسق الليل وأطراف النهار، انظر الآيات: (البقرة ٤٣/١٢٥، الحج ٢٦/٧٧، المرسلات ٤٨، آل عمران ٤٢، ص ٢٤، المائدة ٥٥، التوبة ١١٢، الفتح ٢٩) .

٢- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، حديث رقم ٥٩٩.

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخَبَصَةٍ غَيْرٍ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿المائدة: ٣﴾ .

٢- الزكاة، ارتبط الأمر بإيتاء الزكاة في جل مواضعه في القرآن الكريم باستثناء ثلاثة مواضع<sup>(١)</sup> - بالأمر بإقامة الصلاة ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخِوُنُكُمْ فِي الَّذِينَ يُنْفِصِلُ الْأَيْدِيَ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة: ١١) ، فكما أن الصلاة هي تقديم جزء من الوقت لله تعالى نعبده فيه، فكذلك الزكاة هي تقديم جزء من المال لله تعالى، والهدف من الصلاة والزكاة هو التطهير، تطهير الوقت وتطهير المال، وهما معا تزكية للنفس في علاقتها مع الله وتقوية روابطها به، ثم في علاقتها بالعباد وحفظ البنیان الاجتماعي والعاطفي وتماسكهما.

وجاءت الايات لتبين أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من قوام الدين الحنيف الخالص لله وعبادته ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ (البينة: ٥)، كما اعتبرت إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة علامة في دخول الدين الذي ارتضاه الله لعباده المخلصين، وعاصما لدمائهم ومانعا من محاربتهم.

وجاء الأمر بالزكاة، كما بالصلاة، في الرسالات السماوية السابقة، نجد ذلك في قوله عز وجل حكاية عن ذرية إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ (الأنبياء: ٧٣)، وقوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام وهو لم يزل في المهدي بعد صبيا: ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (مريم: ٣١)، وقوله تعالى مخاطبا زوجات نبي الختم صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ﴾ (الأحزاب: ٣٣)، وقوله عز وجل مبينا فلاح المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣)

وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿ (المؤمنون: ١-٤)، وقوله تعالى حكاية عن بني إسرائيل: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وِبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِالْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَوَلُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿ (البقرة: ٨٢)، فإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فريضتان ملازمتان للمؤمنين كل المؤمنين في سائر الأزمنة، وجميع الأماكن، وجاء في هذه الآية الأخيرة من بنود الميثاق الذي أخذه الله على عباده من بني إسرائيل.

٣- الصيام: يقول الله عز وجل في محكم تنزيله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿ (البقرة: ١٨٣)، فالخطاب في هذه الآية لمؤمني أمة محمد ﷺ، يبين أن فريضة الصوم ليست خاصة بهم وحدهم وليست بالجديدة ولا الحديثة، وإنما كتبت على المؤمنين من قبلهم. والصوم منه ما هو فريضة ومنه ما هو تطوع كما يتجلى في قوله عز وجل: ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿ (البقرة: ١٨٤)، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «قدم النبي ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال ما هذا؟ قالوا هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، قال فأنا أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه»<sup>(١)</sup>. وربط الصوم في كتاب الله بالصدقة وحفظ الفرج والعكوف في المساجد، فالصوم تربية للنفس وكبح للشهوات، وكل الأمور التي تزي النفس من ذكر وصلاة وقيام وصيام وزكاة جاءت ثابتة في الرسالات السماوية يصدق بعضها بعضا.

١- أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الصوم، باب صيام يوم عاشوراء، رقم ٢٠٠٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء، رقم ١١٢٠.

٤- الحج؛ يختلف الحج عن سائر العبادات لارتباطه بمكان وزمان معينين لا يقبل في غيرهما، بخلاف العبادات الأخرى التي يمكن للمؤمن أن يؤديها أينما كان وأينما حل وارتحل. الحج له مكان مخصوص، إنه بكة المكرمة وبالضبط بيت الله الكعبة المشرفة وما حولها، فهذا البيت العتيق يشد الناس ويجذبهم إليه من جميع أنحاء المعمور، إلى هذا البيت تتوحد وجهة الناس وقبلتهم، وفيه تتوحد عبادتهم لله في وقت واحد وزمن واحد، يجتمع فيه الناس من كل حذب وصوب، ومن كل الأجناس والألوان والأعمار رجالا ونساء، شيبا وشبابا لم تنتهم لا تجارة ولا بيع عن تلبية النداء الذي يمتد زمنه إلى إبراهيم عليه السلام لما خاطبه ربه قائلا: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٣٦﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٣٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْأَنْفُسَ الْفَقِيرَ ﴿٣٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٩﴾﴾ (الحج: ٢٦ - ٢٩)، فهو نداء من رب الناس للناس كل الناس، ليحجوا إلى أول بيت وضع للعالمين ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ (آل عمران: ٩٦ - ٩٧)، فهذه الآية الأخيرة تبين الارتباط الوثيق بين حج بيت الله الحرام وبين التوحيد، فالحج جمع للناس بعد تفرقة وتذكير لهم بوحدتهم ووحدة قبلتهم لله سبحانه، فصي هذه الآية يعلن الله عز وجل الكعبة محورا للهدى العالمي، ومركزا لبركات الله المادية والمعنوية، فاتجاه المسلمين إليها من كل فج عميق إنما هو باعتبارها أول مركز للتوحيد والهدى، فكل الناس جاءوا ليذكروا الله وحده لا شريك له، ولينخرطوا

في موكب الساجدين الذي يضم الكون كله عبر الطواف بالبيت العتيق ﴿وَلَيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (الحج: ٢٩)، هذا الطواف الذي يكون في انسجام تام مع حركة الكون ودورانه حول مركزه، فالكل يجذب نحو هذه النقطة ويدور حولها في حركة معاكسة لعقارب الساعة.

ويتجلى التصديق أيضا في بعض التشريعات التي جاءت بها الرسالات السماوية نذكر منها:

٥- شريعة الجهاد، كُتب القتال على المؤمنين في سبيل الله كما كتب عليهم الصيام والصلاة والزكاة والحج، فهي فريضة الأمة تجب على كل القادرين كل بإمكاناته البدنية والمالية لنصرة دين الله والدفاع عن المستضعفين في الأرض وحمايتهم، والقتال هو صراع وتدافع بين مؤمني الله ومؤمني الشيطان/الطاغوت، فهو معركة دائمة إلى يوم القيامة بين دائرة الكفر ودائرة الإيمان، بين حضارة الرحمن وحضارة الشيطان/الطاغوت، بين قوى الشر والبغي والضلال والانحراف والطغيان، وبين الإيمان والخير والحق والسلام في دعوة الأنبياء وأتباعهم ممن حمل رسالة التوحيد، ودعا إلى العدل والرحمة والمساواة في ظل الإيمان بالله الواحد الأحد والعبودية له سبحانه وحده.

والمتتبع لمسيرة الأنبياء في تاريخ البشرية، يرصد معاناة الأنبياء وأتباعهم وجهادهم لقوى الظلم والطغيان وسمودهم في مواجهتها، يقول الله عز وجل: ﴿وَكَاذِبِينَ مَن نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٥٧﴾ (آل عمران: ١٤٦ - ١٤٧)، وقوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (الفرقان: ٣١)، وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَرَ

كَمَا صَبَرَ أَوْلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلِّغْ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٥﴾ (الأحقاف: ٢٥).

وجاءت الدعوة إلى القتال والجهاد والترغيب فيه والحظ عليه في آيات كثيرة من القرآن الكريم مبشرة للمجاهدين والمقاتلين في سبيل الله ومتوعة النالكين عنه، ممتدة بهذه الدعوة إلى كتب التوراة والانجيل، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقْنِلُونَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْنِلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ وَعَهْدُهُ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبَشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ (التوبة: ١١١)، وقوله تعالى على لسان

موسى عليه السلام وهو يخاطب قومه ويحضهم على مقاتلة الجبارين: ﴿يَقَوْمِ أَدْخَلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَىٰ أَذْيَارِكُمْ فَذَنقَلُوا خَسِرِينَ ﴿٢٢﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَخَلُوكَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّكَ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَآذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ (المائدة: ٢١ - ٢٥)، وقوله تعالى حكاية عن بني إسرائيل من بعد موسى وطلبهم للقتال في سبيل الله بعد أن أخرجوا من ديارهم فلما كتب عليهم القتال تولوا (الآيات ٢٤٦-٢٧٥).

ومهما كانت قوى الظلم والطغيان، ومهما قل زاد الفئة المؤمنة المقاتلة في سبيل الله إلا وكان النصر حليف المؤمنين. فالجهاد والقتال في سبيل الله لا اعتبار فيه للمقاييس المادية البشرية وإنما تتداخل فيه قوى الغيب مع قوى الشهادة. ففرض الجهاد والقتال على المؤمنين هو ابتلاء وامتحان

أولاً لإيمانهم وثباتهم حتى تنمو الطاقات المؤمنة، وثانياً هو ضروري لمحو الظواهر الفاسدة من المجتمعات البشرية والحيلولة دون سيطرة الشر والباطل وخمود الحق وضياعه. وإلا فإن الله عز وجل لا يؤوده حفظ السموات والأرض وما بينهما فهو سبحانه قادر على أن يحفظهما بقدرته وهو العلي على كل قدرة والعظيم ذو الجبروت والسلطان المطلق، وهو الحي الباقي البقاء المطلق.

والدعوة إلى القتال وجهاد قوى الكفر والطغيان، ليست لإكراه الناس على الإيمان والدخول في دين الله ف ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٢٥٧)، فلا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي، وتبينت سبل الهدى والسلام من سبل الشيطان، قد اكتمل الدين واستوى صراط رب العالمين فمن اهتدى اتخذ إلى ربه سبيلاً، ومن ضل اتخذ الشيطان ولياً وخليلاً، وإنما فرض لرفع الظلم ونصرة المستضعفين في الأرض، وإحقاق الحق وتحرير الدعوة إلى الله وإعلاء كلمته.

والجهاد لا يكون دائماً بالسلاح، فلنا في إبراهيم عليه السلام نموذج المجاهد في سبيل إحقاق الحق وإثبات التوحيد بالحجة والمنهج العقلي السليمين، فالأصل في الدعوة إلى الله أن تكون بالحكمة والموعظة والجدال بالتي أحسن مصداقاً لقول الله عز وجل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥)، ولا يكون اللجوء إلى القتال إلا في حالة الاعتداء والظلم: ﴿أُذِّنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلُمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: ٣٩)، ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠)، ﴿وَإِن أَحَدٌ مِّنَ

المشركين استجارك فآجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه، ذلك بأنهم قوم  
 لا يعلمون ﴿ (التوبة: ٦)، فقد جاء كتاب الختم بمبادئ وأخلاق تنظم  
 شريعة الجهاد وتضبطه، وجمع نبي الختم ﷺ بين الضربين من الجهاد،  
 فكان ﷺ مقاتلا حيث أمر الله بذلك، وداعيا إلى الله بالحكمة والموعظة  
 الحسنة وخير مجادل للمخالفين كما علمه رب العالمين.

٦- فيما يخص التشريعات الاجتماعية، وخاصة فيما يخص النكاح نص  
 الله عز وجل على مجموعة من النساء المحرمات حفاظا على التماسك  
 الأسري وصونا لأواصر القرابة الرحمية ﴿ وَلَا تُنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ  
 مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (٢٣)  
 حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ  
 وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْتَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ  
 مِنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهُنَّ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ  
 مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ  
 عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا  
 بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿ (٢٤)  
 وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِجْلَ لَكُمْ مَا  
 وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ  
 مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيهَا تَرْضَاهُنَّ بِهِ مِنْ بَعْدِ  
 الْفَرِيضَةِ إِنْ أَلَّفَهُ كَانِ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿ (٢٥) وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ  
 الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ نَفِيَّتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ  
 أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ  
 بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ  
 أَتَيْنَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ  
 خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْرَبُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ (٢٦) يُرِيدُ اللَّهُ



لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ  
 حَكِيمٌ ﴿٦١﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّمْهَاتِ  
 أَن تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴿النساء: ٢٢ - ٢٧﴾، وقوله عز وجل في ختام هذه  
 الآيات ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾  
 يؤكد على أن هذه التعاليم السماوية ليست بالحديثة وإنما هي من قوانين  
 الاجتماع البشري الموافقة للفطرة السليمة، وأنها كان معمولاً بها فيما سبق  
 من الأمم.

٧- التشريعات الرئيسية والخالدة، والتي لا تختص بشريعة دون أخرى  
 ولا بملة دون أخرى، بل هي مما شرع الله لأنبيائه ومن ثم لسائر عبادته  
 بالتبع والتي تجسد وحدة الدين الذي جاء به الرسل عليهم السلام جميعاً  
 كما يتجلى ذلك في قوله عز وجل: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا  
 وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا  
 تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ  
 وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (الشورى: ١٣)، وإذا تتبعنا في القرآن الكريم  
 هذا الذي وصى الله به أنبياءه . أو ما يسمى بالوصايا العشر. سنجد  
 «قدموه» مجتملاً في ثلاثة مواقع؛ الأول في سورة الأنعام وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ  
 تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا  
 وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ  
 مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ  
 وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ  
 أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَيْلِ وَالْمِيرَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا  
 قُلْتُمْ فَأَعِدُوا لَكُمْ وَوَعَدَ اللَّهُ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ  
 تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ  
 بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَىٰ

الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَالَمِهِمْ بِمَا  
 رَّبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ  
 ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ  
 لَعَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ  
 بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ  
 عَنْهَا سَنَجِرَ الَّذِينَ يَصِدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصِدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ  
 يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ  
 آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ  
 انظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا  
 أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرٌ أَمْثَلِهَا  
 وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلِ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى  
 صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلِ إِنَّا  
 صَلَّاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا  
 أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلِ اعْبُدُوا اللَّهَ الَّذِي تَعْبُدُونَ رَبَّاءَ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا  
 عَلَيْهَا وَلَا نُزِرْ وَازِرَةً وَرَزَّ آخِرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ  
 ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآرْضَ رَفْعًا وَجَعَلَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَسْئَلُوكُمْ  
 فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿الأنعام: ١٥١ - ١٦٥﴾،

وهو ما اشتمل عليه الموقع الثاني في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿يَنْبِئُ  
 ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا  
 لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ بَيْتِهِمَا إِنَّهُ يَرْتِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ، مِنْ حَيْثُ لَا تَرْوُونَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ  
 أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا  
 بِهَا قُلْ إِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَسْرَأُ  
 رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ  
 كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا

الشَّيْطَانِ أَوْلِيَآءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴿يَبْنِيءَ ءَادَمَ خُدُوًا زَيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلذَّيْنِ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَنًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴿٣٣﴾ (الأعراف: ٢٧ - ٣٣)

والموقع الثالث، وهو الذي أوحى به الله إلى نبيه الخاتم عليه أفضل الصلاة والسلام، نجده في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ ﴿وَقَضَىٰ رَبِّيكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغْنِ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَادِقِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّلِينَ عَفْوَرًا ﴿٢٥﴾﴾ وَءَاتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ إِنْ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ وَإِمَّا تَعْرِضْ عَنْهُمْ أِنْبَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ (الإسراء: ٢٢ - ٢٩).

وهذا الذي أوحى به الله إلى رسوله الخاتم ﷺ هو موافق لما وصى به الله الرسل من قبل عليهم السلام وتماما على الذي أنزل، فالشرك بالله بكل أنواعه، وترك الإحسان بالوالدين وقتل الأولاد خشية الفقر، وإتيان الفواحش، وقتل النفس دونما جواز شرعي، والتصرف في مال اليتامى، والتطفيف في الميزان وبخس الناس أشياءهم، وعدم رعاية العدل في التعامل، وعدم العدالة في القول، كالشهادة وأمثالها، وعدم الوفاء بالعهد، فهذه المحرمات حرمها جميع الرسل. إلا أن الإضافة التي جاء بها نبي الختم هو «الميزان»

فضاعة الوالدين مثلا واجبة ولكن بميزان ﴿ وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَيْهِمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ (لقمان: ١٥)،  
والقصاص مشروع ولكن بميزان ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا  
فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ (الإسراء: ٣٣)، أمر سبحانه  
بالإنفاق في سبيله وأمر بالإحسان ولكن بميزان ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ  
عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾ (الإسراء: ٢٩).

والقرآن إذ يذكر بهذه المحرمات العامة التي أعلنتها جميع الشرائع  
ويصدقها ويهيمن عليها، يردّ بذلك على الذين وضعوا من عند أنفسهم  
نظاما تحريميا واعتبروه شريعة لهم من الله.

واجتناب هذه المحرمات والامتثال لأوامر الله والانضباط للآداب العامة  
التي جاءت بها جميع الرسالات السماوية هو اتباع لصراط الله المستقيم  
الذي دعا عباده إليه ليتبعوه وأن لا يتبعوا السبل - سبل الشيطان/الطاغوت -  
فتفرقهم عن سبيل الله الذي أرسل رسله أدلاء عليه. والأمم التي نكبت عن  
هذا الصراط، وظنت أنها مستغنية بعلمها عن علم الدلالة النبوي ذاقت  
وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا.

٨- تجليات التصديق فيما يتعلق بمكارم الأخلاق: في منظومة الإسلام  
بمفهومه الشامل - لا يوجد فرق بين الدين والأخلاق، فالأخلاق تستمد  
مصدرها من الدين، بل الدين هو الأخلاق والأخلاق هي الدين، وكما قيل  
«الدين حسن الخلق»، فالرسول الخاتم ﷺ حصر بعثته في مهمة واحدة  
وهي إتمام مكارم الأخلاق فقال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»<sup>(١)</sup>،  
وكان خلقه ﷺ القرآن كما أجملت ذلك عائشة أم المؤمنين لما سئلت عن

١- السنن الكبرى للبيهقي، حديث رقم ١٩١٤٤.

خلق رسول الله ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن»<sup>(١)</sup>، وهذا الحديث هو بيان لقوله عز وجل مخاطبا نبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)، ووصف ﷺ بأنه كان قرءانا يمشي على الأرض، وكذا شأن سائر الأنبياء فقد كان سلوكهم وأخلاقهم وجل تصرفاتهم تجسيدا للوحي المنزل إليهم، فكان خلقهم جميعا عليهم السلام الصدق والأمانة وما جرب عليهم قط الكذب ولا الخيانة. فمسيرة مكارم الأخلاق ابتدأت مع بعثة أول نبي رسول، واكتملت مع خاتم النبيين المرسلين عليهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم جميعا.

ومجمل الأخلاق، التي يصطلح عليها الناس اليوم، جاءت في منظومة الوحي، متضمنة في الأوامر والنواهي الإلهية (الأمر بالإحسان إلى الوالدين والتذلل لهما والرحمة، والنهي عن نهرهما أو التأفف عليهما، وكذلك الأمر بالإحسان لذوي القربى واليتامى والمساكين والجيران والأصحاب وهو ما يصطلح عليه بالأخلاق الاجتماعية، ثم هناك مجموعة من الأخلاق تخص السلوك الإنساني وقد جاءت متجلية في النهي عن الاعتداء على الآخرين سواء فيما يخص حياتهم أو أموالهم أو أعراضهم؛ لا تقتل، لا تسرق، لا تزن، لا تقذف، لا تسب...)، كما تتجلى الأخلاق في أسمائه الحسنى سبحانه (العدل، الرحيم، الكريم...)، وفي السلوك النبوي والحكمة النبوية، فمثلا قيم العدل والوفاء والإحسان جاءت عبارة عن تشريعات ورتب عن عدم العمل بها عقاب دنيوي وأخروي كما رأينا سابقا.

ووجب التنبيه على أن كثير من الثنائيات في القرآن الكريم من قبيل الخير/الشر، الطيب/الخبث، الصالح/السيء تكتنز مجموعة من القيم والأخلاق في الأقوال والأفعال سواء. وسنذكر فيما يلي بعض القيم التي

١- انظر الحديث كاملا في صحيح مسلم ٥١٢/١ ح ٧٤٦. ومسند الإمام أحمد ١٤٨/٤١ و ١٨٢/٤٢.

جاءت في الحديث عن بعض الأنبياء عليهم السلام في القرآن الكريم من مثل قيمة الخير، وقيمة التواضع، وقيمة الكرامة، وقيمة المساواة، وقيمة اللين والرحمة وغير ذلك:

- فعل الخيرات، أوحى الله إلى أنبيائه ومن خلالهم إلى سائر عباده فعل الخيرات والمسابقة والمسارة فيها وإليها، يقول الله عز وجل: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مَوْلِيَةٌ فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (البقرة: ١٤٨)، وقوله تعالى: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران: ١١٤)، وقوله تعالى في تعليل سنة الاختلاف ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (المائدة: ٤٨)، وقوله تعالى في حق ذرية إبراهيم عليه السلام: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أئمةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ (الأنبياء: ٧٣)، وقوله تعالى في حق الأنبياء السابقين عليهم السلام: ﴿وَيَدْعُونَكَ رِجَابًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (الأنبياء: ٩٠)، وقوله تعالى في صفات المؤمنين: ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (المؤمنون: ٦١)، وقوله تعالى في صفات عباده المصطفين الذين أورثهم الكتاب: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ﴾ (فاطر: ٣٢). فالأنبياء والرسل عليهم السلام وأتباعهم المهتدون كانوا خيرة البشر، فكانوا السابقين إلى قضاء حاجة الضعيف ونصرة المظلوم، وأرحم الناس بالناس، صغيرهم وكبيرهم وسائر المخلوقات حتى الجماد منها، فكانوا بذلك مصلحين في الأرض غير مفسدين.

- التواضع: في موعظة لقمان لابنه: ﴿وَلَا تَصَعَّرْ خَدَكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (١٨) ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَسِيرِكَ وَأَعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان: ١٨ - ١٩)، فقول لقمان لابنه ﴿وَلَا تَصَعَّرْ خَدَكَ لِلنَّاسِ﴾ (فيه نهي عن التكبر على الناس لما للكبر من عواقب سيئة على التعايش، كما أن قوله: ﴿فِي مَسِيرِكَ وَأَعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾

فيه من آداب اللياقة واللباقة في المشي والحديث ما لا يخفى.

وقد جاء القرآن بمثل هذا مصدقا ومكملا فيما يخص سلوك الإنسان مع غيره، من أمر بالتواضع واجتناب السخرية من الآخرين والتكلم في أعراضهم وسوء الظن بهم، ونهي عن التجسس وجاء بأداب الاستئذان عند دخول بيوت الناس وعند الخروج وآداب المناداة على الناس، والعضو عن الناس والتشفع لهم بالحسنى، وهذا نجده متضمنا في الآيات التالية: قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء: ٣٦)، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (٢٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٢٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ (الإسراء: ٢٧ - ٢٩). وقوله تعالى: ﴿وَخُفِّضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٥)، وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنفَضْنَا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وقوله عز وجل: ﴿عَسَىٰ وَتُوَلَّىٰ﴾ (١) ﴿أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّيٰ﴾ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ (عبس: ١ - ٤)، وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءِ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُم الظَّالِمُونَ﴾ (١١) ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا يَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحجرات: ١١ - ١٢)، وغيرها من النصوص التي تنتهي عن الحسد والبغض والبلخ.

وكما أشرنا سابقا فإن الأخلاق جاءت متضمنة في التشريعات وخير مثال مقدمه هو هذه الآية الجامعة لأوصاف عباد الرحمن الذين امتدحهم الله في قوله عز وجل: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ

الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾  
 وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾  
 إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ  
 بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ  
 الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ  
 الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُخْلَدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا  
 صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ  
 تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ  
 وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يُجِرُوا  
 عَلَيْهَا صُمًّا وَعِمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ  
 أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا  
 وَيُلْقَوْنَ فِيهَا زَوْجَةً وَاسْلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا  
 ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٦﴾

(الفرقان: ٦٣ - ٧٧).

فضضية السلوك في القرآن الكريم قضية جوهرية، وقد شمل سلوك الإنسان  
 مع نفسه، ومع أسرته، ومع الناس أجمعين، كما شمل المبادئ التي تحكم  
 العلاقات بين الحاكمين والمحكومين، وبين الدول أو المجتمعات، فالقرآن  
 الكريم رسم لكل مجال من مجالات الحياة خط سلوكه المثالي، وبنظرته  
 الشمولية هذه كان مصدقا لما جاء قبله ومكملا له ومهيما عليه<sup>(١)</sup>.

وإجمالا يمكن القول إن تجليات التصديق شملت أركان الإيمان (الإيمان

١- معرفة المزيد عن الأخلاق في القرآن الكريم ينظر كتب الدكتور عبد الله دراز: «دستور الأخلاق  
 في القرآن»، «من خلق القرآن» وكذا كتاب «مدخل إلى القرآن» فقد قام فيه بتقريب بين المبادئ  
 الأخلاقية كما جاءت في التوراة والإنجيل والقرآن في الفصل الثاني من الكتاب المعنون بـ«الخبر  
 أو العنصر الأخلاقي في القرآن».



باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر)، وأركان الدين (الصلاة والزكاة والصيام والحج)، والتشريعات المنظمة للحياة الاجتماعية أو ما يمكن تسميته بحقوق الإنسان، وكذا مجموع الآداب العامة والسلوك الإنساني المنسجم مع الفطرة الإنسانية السليمة.

ونخلص من هذا إلى القول إن بعثة خاتم الأنبياء ﷺ في مكة أم القرى، قرب بيت الله الحرام الذي وضع للناس، بيت العالمين ومركز النور للعالمين لم تكن عبثاً، إنها:

- أولاً، استجابة لدعوة إبراهيم «إمام الناس» يوم رفع قواعد البيت هو وإسماعيل عليهما السلام ﴿وَإِذْ رَفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ (البقرة: ١٢٧ - ١٣١).

- ثانياً، هو إحياء لمبدأ التوحيد الذي أرساه إبراهيم ﷺ ورفع قواعده من خلال البيت الموحد للناس فقال ﷺ في دعائه: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ أَمِنًا وَاجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ (إبراهيم: ٣٥)، وقوله ﷺ داعياً: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (إبراهيم: ٣٧)، فهذه دعوات إبراهيم تتكرر بأن يجعل الله هذا البلد، بلد بيت الله الحرام، بلد أمن وعبادة لله وحده، وإقامة للصلاة، وشكر لله. وشاء الله وكان البلد كما دعا إبراهيم ﷺ بلداً مباركاً للعالمين.

لكن طال الأمد وقست القلوب ولم يعد البلد بلد توحيد، ورجع الناس إلى عبادة الأصنام والأوثان والشرك بالله عبر القرون التي خلت.

- ثانياً: إن حركة التوحيد انطلقت أول ما انطلقت من هذه الأرض، وتالت الرسل وتعاقبت الرسائل بتعاقب الأمم وتداول الأيام، ثم يفتر الإرسال والوحي فيعود من حيث بدأ لتختتم دورة الرسائل ويكتمل خط النبوات بكتاب خاتم جمع تراث الرسائل والكتب السماوية وصدق وهيمن عليها، ونبى خاتم ورث ملة وإمامة إمام الأنبياء والرسل وأبيهم إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، كما ورث وأمته أرض التوحيد «مكة المكرمة»، تالياً لآيات الله، ومعلماً الناس الكتاب والحكمة، ومزكياً للناس من خلال تصحيح العقيدة وتقويم الأخلاق والسلوك «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، وهذه هي أهداف الأنبياء والرسل جميعاً عبر التاريخ أجملها إبراهيم واسماعيل عليهما السلام في دعائهما ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ۱۲۹).





الفصل الثاني:

المحددات الدلالية والمفهومية  
للهيئة في القرآن الكريم



## المبحث الأول: الهيمنة في المعاجم اللغوية والاصطلاحية

سنجلي في هذا الفصل كيف أن القرآن لم يأت مصدقا لما قبله فقط، بل جاء أيضا مهيمنا على الكتب السماوية السابقة التي طال عليها الأمد ونالها النسيان والتبديل والتغيير. فما معنى الهيمنة؟ وما هي محدداتها؟ (١) الهيمنة في اللغة:

مدار الهيمنة في اللغة على معاني الشهادة والحفظ والائتمان والرقابة والقوامة، وتعتبر الشهادة أول معاني الهيمنة فهي تأتي في الصدارة عند أكثر اللغويين كما يظهر في شروحاتهم الآتية:

- قال ابن منظور<sup>(١)</sup>: **المُهَيِّمُ** **والمُهَيِّمُنُ**: اسم من أسماء الله تعالى في الكتب القديمة. وفي التنزيل: **وَمُهَيِّمًا** عليه؛ قال بعضهم: معناه الشاهد يعني وشاهداً عليه.

- **والمُهَيِّمُنُ**: الشاهد، وهو من آمن غيره من الخوف، وأصله **أَمَّنَ** فهو **مُؤَمِّنٌ**، بهمزتين، قلبت الهمزة الثانية ياء كراهة اجتماعهما فصار **مُؤَيِّمِنٌ**، ثم صيرت الأولى هاء كما قالوا **هَرَأَقَ** وأرأق. وقال بعضهم: **مُهَيِّمِنٌ** معنى **مُؤَيِّمِنٌ**، والهاء بدل من الهمزة، كما قالوا **هَرَقْتُ** وأرقت، وكما قالوا **إِيَّاكَ** و**هِيَّاكَ**؛ قال الأزهري: وهذا على قياس العربية صحيح مع ما جاء في التفسير أنه بمعنى الأمين، وقيل: بمعنى **مُؤْتَمِنٌ**؛ وأما قول عباس بن عبد المطلب في شعره يمدح النبي ﷺ:

حَتَّىٰ أَحْتَوَىٰ بَيْتَكَ الْمُهَيِّمِينَ      مِنْ خَنْدِفٍ عَلِيَاءَ تَحْتَهَا النُّطُقُ

فإن القتيبي قال: معناه حتى احتويت يا **مُهَيِّمِينَ** من **خَنْدِفٍ** علياء؛ يريد به النبي ﷺ، فأقام البيت مقامه لأن البيت إذا **حَلَّ** بهذا المكان فقد

١- لسان العرب، مادة «همن».

حَلَّ به صاحبه؛ قال الأزهري: وأراد ببيته شَرْفَه، والمهيمن من نعته كأنه قال: حتى احتوى شَرْفَكَ الشاهدُ على فضلكِ علياءَ الشَّرْفِ من نسبِ ذوي خِنْدِفِ أَي ذُرْوَةَ الشَّرْفِ من نسبهم التي تحتها النطقُ، وهي أوساطُ الجبالِ العالية، جعل خِنْدِفَ نطقاً له؛ قال ابن بري في تفسير قوله بيتك المهيمنُ قال: أَي بيتك الشاهدُ بشرفك، وقيل: أراد بالبيت نفسه لأن البيت إذا حلَّ فقد حلَّ به صاحبه.

وفي حديث عكرمة: كان عليٌّ رضي الله عنه، أعلمَ بالمُهَيِّمِنَاتِ أَي القَضَايَا، من الهَيِّمَنَةِ وهي القيام على الشيء، جعل الفعل لها وهو لأربابها القَوَامِينَ بالأمر. وروي عن عمر أنه قال يوماً: إِنِّي دَاعِ فَهَيِّمُونَا أَي إِنِّي أَدْعُو اللَّهَ فَأَمَّنُونَا، قلب أحد حريفة التشديد في أمَّنُوا ياء فصارَ أَمَّنُونَا، ثم قلب الهمزة هاءً وإحدى الميمين ياءً فقال هَيِّمُونَا؛ قال ابن الأثير: أَي اشْهَدُوا.

وقال ابن الأنباري في قوله: ومُهَيِّمِنًا عليه، قال: المُهَيِّمِنُ القائم على خلقه؛ وأنشد:

أَلَا إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ، بَعْدَ نَبِيِّهِ  
مُهَيِّمِنُهُ التَّالِيَهُ فِي الْعُرْفِ وَالنُّكْرِ

قال: معناه القائم على الناس بعده، وقيل: القائم بأمر الخلق، قال: وفي المُهَيِّمِينَ خمسة أقوال: قال ابن عباس المُهَيِّمِينَ الْمُؤْتَمِنِينَ، وقال الكسائي المُهَيِّمِينَ الشهيد، وقال غيره هو الرقيب، يقال هَيِّمَنَ بِهَيِّمِنُ هَيِّمَنَةً إذا كان رقيباً على الشيء، وقال أبو معشر ومُهَيِّمِنًا عليه معناه وَقَبَانًا عليه، وقيل: وقائماً على الكُتُبِ، وقيل: مُهَيِّمِينَ فِي الْأَصْلِ مُؤْتَمِنِينَ، وهو مُضْبَعٌ مِنَ الْأَمَانَةِ.

- وقال الجوهري<sup>(١)</sup>: المُهَيِّمِينَ: الشاهد، وهو من آمن غيره من الخوف.

- وقال ابن فارس<sup>(٢)</sup>: (همن) الهاء والميم والنون ليس بشيء، فأما

١- الصحاح، مادة «همن».

٢- مقاييس اللغة، مادة «همن».

المهيمن، وهو الشاهد فليس من هذا، إنما هو من باب أمن، والهاء مبدلة من همزة.

- وقال الزبيدي<sup>(١)</sup>: هيمن الطائر على فراخه هيمنة (ررف) كذا في الأساس، وهيمن على كذا صار رقيباً عليه وحافظاً.

## ٢) الهيمنة في الاصطلاح:

جاء في تعريف «المهيمن» في كتاب مفردات القرآن للإمام عبد الحميد الفراهي بعد سرد قول الخليل وأبي عبيد: هيمن، إذا كان رقيباً على الشيء.

أنشد ابن الأنباري:

ألا إن خير الناس بعد نبيه مهيمنه التاليه في العرف والنكر

قال: معناه: القائم على الناس بعده.

عندي (أي عند الفراهي) هو: المعتمد والوكيل. وأما القائم بعده على الناس فالمجاز من تلك الحقيقة<sup>(٢)</sup>.

وفي التحقيق للعلامة المصطفوي: «الأصل الواحد في المادة هو الشاهد الناظر»<sup>(٣)</sup>، وخالف المصطفوي اللغويين في أصل الكلمة، واعتبر ما ذهبوا إليه من أن الكلمة مشتقة من «أمن» غير صحيح. وقال إنَّ الكلمة مأخوذة من السريانية. وعن «مهيمنا» الواردة في الآية ٤٨ من سورة المائدة قال: «فإن القرآن المجيد من جهة احتوائه على الحقائق والمعارف الإلهية والأحكام

١- تاج العروس، مادة «همن».

٢- مفردات القرآن، نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية. تأليف الإمام عبد الحميد الفراهي، ط ١ / ٢٠٠٢ دار الغرب الإسلامي، ص: ٢٨٢. (النسخة الإلكترونية).

٣- التحقيق في كلمات القرآن، مرجع سابق، م ٢١٦/١١.



والآداب والسنن العبادية والأخلاقيات والسلوك.. مهيمن على الكتب المنزلة السماوية السابقة ومحيط وناظر وقائم وشاهد بها. وهو فوقها وحاكم عليها»<sup>(١)</sup>.

ولم يرد ذكر للفظ «همن» أصل الهيمنة ولا لاسم الفاعل «مهيمن» لا في المفردات للراغب الأصفهاني، ولا في الكلديات لأبي البقاء الكفوي، ولا في التعريفات للجرجاني، ولا في الحدود الأنيقة للشيخ الأنصاري، ولا في كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوي.

فما ذهب إليه الفراهي رحمة الله عليه والعلامة المصطفوي لا يخرج عن المعاني التي جاء بها اللغويون.

---

١ - نفسه، ٢١٧.

## المبحث الثاني: الهيمنة في اصطلاح المفسرين

رغم ورود لفظ «الهيمنة» في القرآن الكريم في سياق متقارب، إلا أن أقوال المفسرين قد تعددت في معنى الهيمنة في قوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ﴾ ( المائدة: ٤٨).

وقد أورد ابن جرير الطبري<sup>(١)</sup> (ت ٣١٠هـ) رحمة الله عليه بعض هذه الأقوال بعد تفسيره للآية فقال: أنزلنا الكتاب الذي أنزلناه إليك يا محمد مصدقا للكتب قبله، وشهيدا عليها أنها حق من عند الله، أمينا عليها، حافظا لها. وأصل الهيمنة الحفظ والارتقاب.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، إلا أنهم اختلفت عباراتهم عنه، فقال بعضهم:

- معناه: شهيدا. ذكر من قال ذلك:
- عن ابن عباس قوله: ﴿ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ﴾ . يقول: شهيدا.
- عن السدي قال: شهيدا عليه.
- عن قتادة: ﴿ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ﴾ : أمينا وشاهدا على الكتب التي خلت قبله.
- عن مجاهد: ﴿ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ﴾ : مؤتمنا على القرآن وشاهدا ومصدقا.
- قال ابن جريج: وقال آخرون: القرآن أمين على الكتب فيما أخبرنا أهل الكتاب في كتابهم بأمر، إن كان في القرآن فصدقوا، وإلا فكذبوا.
- وقال بعضهم: معناه: أمين عليه. ذكر من قال ذلك:
- عن ابن عباس: ﴿ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ﴾ : قال: مؤتمنا عليه.
- عن ابن عباس قوله: ﴿ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ﴾ قال: والمهيمن الأمين. قال: القرآن أمين على كل كتاب قبله.

١- جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ابن جرير الطبري، (ج ٨/ص: ٤٨٥ - ٤٨٦ - ٤٨٧ - ٤٨٨ - ٤٨٩).

- عن ابن عباس قوله: ﴿وَمُهَيِّمِنَا عَلَيْهِ﴾ يعني: أمينا عليه، يحكم على ما كان قبله من الكتب.

- عن سعيد بن جبير: ﴿وَمُهَيِّمِنَا عَلَيْهِ﴾ قال: مُؤْتَمِنَا على ما قبله من الكتب.

- عن أبي رَجَاء، قال سألت الحسن عن قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمِنًا عَلَيْهِ﴾ قال: مصدقا لهذه الكتب وأمينا عليها. وسئل عنها عكرمة وأنا أسمع، فقال مؤتمنا عليه.  
- وقال آخرون: معنى المهيمِن المصدِّق. ذكر من قال ذلك:

- قال ابن زيد في قوله: ﴿وَمُهَيِّمِنَا عَلَيْهِ﴾ قال مصدقا عليه، كل شيء أنزله الله من توراة أو إنجيل أو زبور، فالقرآن مصدق على ذلك، وكل شيء ذكر الله في القرآن، فهو مصدق عليها، وعلى ما حدث عنها أنه حق.

وبمثل هذه الأقوال قال المفسرون الآخرون<sup>(١)</sup>، وأضاف القرطبي (٦٧١هـ) معنى آخر في قوله: ﴿وَمُهَيِّمِنَا عَلَيْهِ﴾ أي عاليا عليه ومرتقا<sup>(٢)</sup>.  
ونقل ابن كثير قول العوفي عن ابن عباس أي: حاكما على ما قبله من

---

١- الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ٢/٢٤٦. ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (٢/١٩٩ - ٢٠٠)، ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير ص ٢٨٨. النسفي (٧١٠) مدارك التنزيل وحقائق التأويل ١/٤١٤. عبد الرحمن المقدسي، فتح الرحمن في تفسير القرآن ٢/٣٠٥. الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ٢/٤٥٢ - ٤٥٣. القاسمي، محاسن التأويل ٦/١٦٠. رشيد رضا، تفسير المنار ٦/٣٤٠. تفسير العز بن عبد السلام ١/١٦٧. تفسير الجيلاني، الشيخ محي الدين أبي محمد عبد القادر الجيلاني ١/٥١٠. الشيخ الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن [النسخة الإلكترونية].

٢- الجامع لأحكام القرآن ٨/٣٥.

الكتب<sup>(١)</sup>. ونقل الشوكاني معنى آخر لم ينسبه لأحد ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ ...  
وقيل الغالب المرتفع<sup>(٢)</sup>.

وهذه الأقوال، كما قال ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) كلها متقاربة المعنى، فإن اسم «المهيمن» يتضمن هذا كله، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم، الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها، أشملها وأعظمها وأحكمها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره؛ فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها<sup>(٣)</sup>.

واللافت للانتباه في هذه المعاني كلها هو معنى المصدق، فتفسير «مهيمناً» بمعنى «مصدقا» قد يبدو غريباً خاصة وأن «مهيمناً» وردت معطوفة على «مصدقا» فكيف يكون معنى «مهيمناً» هو «مصدقا»؟ والجواب هو أن الهيمنة متضمنة في عين التصديق، فالقرآن الكريم لم يكن له أن يكون مهيمناً إن لم يكن مصدقا. فرغم أن المفسرين لم يبينوا هذه العلاقة لكن يكفي أنهم أدركوا رحمة الله عليهم أن التصديق من معاني الهيمنة.

١- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٨٤/٢.

٢- الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ٦٤/٢.

٣- ابن كثير، ٨٥/٢.

### المبحث الثالث: المحددات المفهومية للهيمنة في القرآن الكريم

ورد ذكر لفظ الهيمنة في القرآن الكريم بصيغة اسم الفاعل في موضعين؛ الأول مقترنا بالتصديق في الآية ٤٨ من سورة المائدة ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ﴾ والثاني ورد فيه اسما من أسماء الله الحسنى في الآية ٢٢ من سورة الحشر ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيِّمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾، فقد تعددت أسماء الله الحسنى وتكررت عبر القرآن الكريم كله، وكذلك تعددت أسماء القرآن المجيد وتعددت أوصافه، إلا أن اسم الله ﴿ الْمُهَيِّمُ ﴾ ذكر مرة فريدة في القرآن الكريم، ووصف القرآن بـ ﴿ الْمُهَيِّمُ ﴾ كذلك مرة فريدة، وهي مسألة تدعو للتدبر!!

ومن خلال استقراء المواضع التي ورد فيها التصديق رأينا أن القرآن المجيد يصدق ما قبله من الكتب جميعا، والإنجيل يصدق ما قبله أي التوراة، والنبيون والرسل عليهم السلام يصدق بعضهم بعضا، إلا الهيمنة فقد جاءت وصفا خاصا بكتاب الختم القرآن المجيد، وجاء بصيغة الإطلاق أي إن القرآن المجيد وحده هو المهيمن على كل الكتب السابقة بإطلاق. ومن هنا يمكن القول، والله أعلم، إن فعل الهيمنة المطلقة لا يشترك فيه مع الله وكتابه الخاتم شيء، فالله سبحانه هو المهيمن على خلقه جميعا، هو تعالى الذي أنزل كتابه الخاتم المهيمن على الرسالات جميعا، وكما رأينا سابقا فمن معاني الهيمنة الشهادة والرقابة والائتمان، فالله سبحانه شاهد على خلقه رقيب عليهم، والقرآن المجيد شاهد على وحيه سبحانه رقيب ومؤتمن عليه، فالقرآن المجيد إذن هو المرجع فيما سبقه من الوحي.

فمنطلق علاقة القرآن المجيد بالكتب السابقة، إذن، هو منطلقها التصديق، ومنتهاها الهيمنة. وكأن هذه الآية (٤٨) من سورة المائدة

تتجاوب مع آية الاكتمال والإتمام من السورة نفسها والتي يقول فيها الله عز وجل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ﴾ (المائدة: ٣)، وقد أشرنا في مبحث سابق أن الهيمنة مرتبطة بالتصديق وقائمة عليه، وفي هذا الصدد يقول الطباطبائي في تفسيره الميزان: «فهذه الجملة أعني قوله: ﴿وَمُهَيِّمِنًا عَلَيْهِ﴾ متممة لقول: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكُتُبِ الْأَخْيَرَاتِ﴾ تتميم إيضاح، إذ لولاها لأمكن أن يتوهم من تصديق القرآن للتوراة والانجيل أنه يصدق ما فيهما من الشرائع والأحكام تصديق إبقاء من غير تغيير وتبديل لكن توصيفه بالهيمنة يبين أن تصديقه لها تصديق أنها معارف وشرائع حقة من عند الله، والله أن يتصرف منها فيما يشاء بالنسخ والتكميل... فقول: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ معناه تقرير ما فيها من المعارف والأحكام بما يناسب حال هذه الأمة فلا ينافيه ما تطرق إليها من النسخ والتكميل والزيادة كما كان المسيح عليه السلام وإنجيله مصدقا للتوراة مع إحلاله بعض ما فيها من المحرمات كما حكاه الله عنه في قوله: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ لِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ (آل عمران: ٥٠)<sup>(١)</sup>، وهي مسألة قد تطرق إليها الدكتور عبد الله دراز رحمه الله كما سنرى في خاتمة هذا الباب.

ونضيف هنا أن الهيمنة ليست مرتبطة أو متممة للتصديق فحسب، وإنما هي متضمنة في عين التصديق؛ فهناك هيمنة تصديقية استيعابية وهو ما حاولنا تجليله قدر الإمكان في المباحث السابقة من خلال كشف أصول الدين التي استوعبها القرآن الكريم والتي جاءت بها كل الرسالات السماوية السابقة، وهناك هيمنة تصحيحية تجاوزية، وهي تعني البيان والإظهار للتحريف والتبديل والإخفاء الذي طرأ على الكتب السابقة، وتجاوزوه إلى الأصول الصحيحة التي صدق عليها القرآن الكريم وبينها وفصلها وأكملها.

١- الميزان في تفسير القرآن.

وما كان القرآن ليضطلع بوظيفة الهيمنة هذه التي تعني الرقابة والشهادة والائتمان والحفظ... لولا المحددات الموجودة فيه من داخله، وهذه المحددات وهي:

#### (١) جامعية القرآن الكريم:

فالقرآن الكريم كلام الله عز وجل، وكلام الله سبحانه منزه عن كل نقص، ففيه من الكمال والإحاطة ما ليس في كلام الخلق، وهو كتاب ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: ٤٢)، و﴿لَا بُدِيلَ لِكَامِتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (يونس: ٦٤)، وهو كتاب محفوظ بحفظ الله له ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)، فهو الكتاب الخاتم الذي قدر له الله عز وجل اللبث والخلود بين العباد إلى أن يشاء الله. وهو كتاب علي ﴿وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْأَكْتَابِ لَدِينًا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ (الزخرف: ٤).

ثم إن هذا الكتاب قد جاء من لدن من أحاط بكل شيء علما، وإذا كان هذا القرآن المجيد قد قيل أزلا من لدن من قد أحاط بكل شيء علما، فإنه لا يمكن أيضا إلا أن يكون على وجه الكمال، وهذا ما تدل عليه بوضوح آيات كثيرة من كتاب الله تعالى منها قول الله عز وجل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ (يوسف: ٣). ثم يمكن أن ننطلق من هذا إلى مستوى آخر، وهو الآتي؛ فإذا كان هذا القول وهذا القصص أحسن الحديث كتابا متشابها متاني ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي﴾ (الزمر: ٢٣)، كيف إذا كان هذا القول مضمخا بالرحمة وبالود، لأنه تنزيل الودود اللطيف الرحيم الذي يريد بالناس المنزل إليهم هذا القرآن اليسر، ولا يريد بهم العسر؟ ثم كيف إذا أضفنا إلى هذه الأبعاد كلها أن هذا القرآن شفاء؟ ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء: ٨٢)،

وكيف بعد هذا كله إذا أضيف إلى هذه الأبعاد كلها أن هذا القرآن المجيد كان مستودع حقائق الحقائق في هذا الكون، منذ أوله وإلى نهايته، وكان مستوعبا لكل ما كان، وما هو كائن، وما سوف يكون، وما لم يكن، ولو كان كيف سوف يكون؟ لاشك أنه كتاب جامع ﴿مَا فَطَرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٢٨)، وهو تفصيل لكل شيء ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف: ١١١)، وتفصيل للكتاب كله ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس: ٢٧)، فهو تفصيل إذن يشمل المنظور والمسطور وهو ما لم يجتمع في كتاب غير القرآن.

ثم إن هذا الكتاب من حيث أنه أحسن الحديث، ومن حيث أنه أحسن ما أنزل إلى البشر، فإنه كتاب مبين، فقد قال الله عز وجل عن كتاب موسى ﷺ، وهارون ﷺ: ﴿وَأَيُّنَهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ (الصافات: ١١٧)، وقوله سبحانه عن هذا القرآن: ﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (النمل: ١)، فما الفرق بين الكتاب المستبين والكتاب المبين؟ الكتاب المستبين أوحى به في مرحلة لم يكتمل فيها بناء النبوة الذي عبر عنه ﷺ بقوله في الحديث الصحيح، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبْنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبْنَةُ، قَالَ: فَأَنَا اللَّبْنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»<sup>(١)</sup>. وكان هذا الوحي الذي جاء مصدقا لما بين يديه، ومهيما عليه، خاتمة الوحي وجامعه، والذي لا يتنكر لما قبله، بل يصدق على ما هو أصيل أثيل فيه، ويهيمن عليه بهذا الانفتاح على كل زمان، وكل مكان، وكل إنسان إلى أن يرث الله الأرض ومن وما عليها. فإذن

١- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ. رقم الحديث: ٢٢٩٤.





الفرق بين الكتاب المستبين والكتاب المبين، أن الكتاب المستبين جاء لقوم مخصوصين، وفيه هدى ونور يحكم به النبيئون، كما قال الله عز وجل في حق التوراة، لكن القرآن الكتاب المبين جاء لكي يبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن وما عليها.

## ٢) مكنونية القرآن الكريم:

إنه كتاب مكنون ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة: ٧٧ - ٧٩)، كتاب ينكشف عبر الزمن لمن أقبل عليه بقلب طاهر، وهذا التكشف الذي يتكشف به القرآن المجيد عبر الزمن، وبحسب استعدادات الناس، هو قول الله عز وجل: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَدِشًا مَّتَّصِدًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ﴾ (الحشر: ٢١)، ﴿وَلَوْ أَنَّا قُرْءَانًا سِرتَ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ (الرعد: ٢١)، هذه القوة المكتنزة في القرآن المجيد، هي القوة التي يحتاج إليها عالم مثل عالمنا اليوم في هذا الزمان، أكثر من أي زمان مضى.

فالقرآن الكريم فيه هذه القابلية لأن يفسر الحياة والأحياء للناس، وأن يظهر لهم هذه السنن، وأن يظهر لهم هذه الحقائق ولكن بحسب قوة المستمد الذي يستمد من القرآن المجيد، وهو استمداد له آدابه وله قواعده؛ منها الآداب النفسية، والأسس العلمية، وكذلك صلاح وصفاء هذا الإقبال.

## ٣) بنائية القرآن المجيد:

إن هذا القرآن بناء، فهو ليس عبارة عن نصوص متفرقة لا يربطها رابط، كلا، إنه كالكلمة الواحدة، كالبنيان يشد بعضه بعضا، تتماسك حروفه وكلماته وآياته وسوره، تماسكا عضويا شديدا كما تتماسك الحجرات في البنيان، وقد ذم الله عز وجل الذين تعاملوا مع القرآن بمنطق التفرقة

والتوزيع والتعضية في قوله سبحانه: ﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقَسِّمِينَ ﴾ (١٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿ (الحجر: ٩٠ - ٩١). فهذه الوحدة البنائية وهذا الترتيل في القرآن المجيد ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ (الفرقان: ٣٢)، ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ (المزمل: ٤)، هي التي تعطي الحصانة للمفاهيم والأطر المرجعية القرآنية من التأويلات الخارجة عنه والتي ما لها من سلطان عليه، فهذه البنائية وهذا الترتيل يحفظان القرآن ويحميانه من أن يدخل فيه ما ليس منه.

وفي هذا الصدد يقول الدكتور عبد الله دراز رحمه الله: «أجل إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضعافاً من المعاني حشيت حشواً، وأوزاعاً من المباني جمعت عفواً؛ فإذا هي لو تدبرت بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول، وأقيم على كل فصل منها شعب وفصول، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول: فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة: لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق؛ بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضام والالتحام. كل ذلك بغير تكلف ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه، يريك المنفصل متصلاً، والمختلف مؤتلفاً.

ولماذا نقول إن هذه المعاني تتسق في السورة كما تتسق الحجرات في البنيان؟ لا. بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان: فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعي من أنفسهما، كما يلتقي العظامان عند المفصل ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كثر، كما يشبك العضوان بالشرابين والعروق والأعصاب؛ ومن وراء ذلك كله

يسري في جملة السورة اتجاه معين، وتؤدي بمجموعها غرضاً خاصاً، كما يأخذ الجسم قواماً واحداً، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضوية»<sup>(١)</sup>.

وما قيل عن السورة الواحدة يقال عن القرآن الكريم بمجمله، فهذه الوحدة العضوية في القرآن المجيد، والتي تشكل أحد أهم وجوه الإعجاز فيه، تفتح المجال أمام القراءة المنهجية للآيات/البصائر صعوداً نحو مآلات معرفية لا حصر لها، إن القرآن المجيد في اتساق وحدته البنائية يحقق للبشرية وحدة معرفية تلملم شتات الإنسان المعرفي، وتوحد بين زوايا إدراكه، بما يشبه إكسابه جهاز تنسيق معرفي يمكنه من الخروج من التفرع الإدراكي ومرحلة الشركاء المتشاكسين إلى صيرورته سلماً لله رب العالمين. فيطفق في السير سوباً على صراط مستقيم.

#### ٤) عالمية القرآن المجيد:

فهو خطاب للعالمين، ليس للمسلمين وحدهم، ولا للمؤمنين وحدهم، ولا لليهود وحدهم، ولا النصراني وحدهم، ولا الصابئين وحدهم، ولا الكافرين وحدهم،... إنه خطاب لكل الملل والنحل خطاب للناس كافة، مصداقاً لقوله عز وجل: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿﴾ (التكوير: ٢٧ - ٢٨)، وقوله سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿﴾ (الفرقان: ١)، والرسول الذي أنزل عليه هذا القرآن هو رسول للعالمين مصداقاً لقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿﴾ (سبأ: ٢٨)، فهو إذن كتاب العالمين وليس لقوم مخصوصين.

١-النبأ العظيم، د. عبد الله دراز. نظرات جديدة في القرآن. دار القلم، الكويت. الطبعة السادسة ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م، ص ١٥٥.

## ٥) حاكمية القرآن المجيد:

ورد وصف القرآن الكريم بالمهيمن في سياق إقرار إرادة الله ومشيئته لجعل الناس مختلفين ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (هود: ١١٨)، وهذا الاختلاف يقتضي بالضرورة مرجعا يتم التحاكم إليه ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ (المائدة: ٤٨)، فكل أمة تجد فيه ذكرها لأنه كتاب الناس/العالمين ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْا فَرِيقًا مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (آل عمران: ٢٢)، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْسَلَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ (النساء: ١٠٥)، وفي هذا الصدد يقول سيد قطب في تفسير هيمنة الوحي الخاتم: «فهو الصورة الأخيرة لدين الله، وهو المرجع الأخير في هذا الشأن، والمرجع الأخير في منحج الحياة وشرائع الناس، ونظام حياتهم، بلا تعديل بعد ذلك ولا تبديل. ومن ثم فكل اختلاف يجب أن يرد إلى هذا الكتاب ليفصل فيه. سواء كان هذا الاختلاف في التصور الاعتقادي بين أصحاب الديانات السماوية، أو في الشريعة التي جاء هذا الكتاب بصورتها الأخيرة. أو كان هذا الاختلاف بين المسلمين أنفسهم، فالمرجع الذي يعودون إليه بأرائهم في شأن الحياة كله هو هذا الكتاب، ولا قيمة لآراء الرجال ما لم يكن لها أصل تستند إليه من هذا المرجع الأخير»<sup>(١)</sup>.

## ٦) كمال الدين وظهوره:

وردت آية الاكتمال في موضع وحيد في بداية سورة المائدة وهو قوله عز وجل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣، وهي السورة نفسها التي وردت فيها آية الهيمنة في سياق

١- في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/٩٠٢.

واحد هو إقرار ضوابط التعامل مع أهل الكتاب والمخالفين، وقد ورد في هذه الآية حديث مرفوع لعمر بن الخطاب لما قالت له اليهود: إِنَّكُمْ تَقْرءُونَ آيَةَ لَوْ نَزَلَتْ فِيْنَا لَاتَّخَذْنَاهَا عِيدًا، فَقَالَ عُمَرُ: «إِنِّي لِأَعْلَمُ حَيْثُ أَنْزَلْتَ، وَأَيِّنَ أَنْزَلْتَ، وَأَيِّنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَنْزَلْتَ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَإِنَّا وَاللَّهِ بِعَرَفَةَ»، قَالَ سُفْيَانُ: «وَأَشْكُ كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَمْ لَا، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ سُورَةَ الْمَائِدَةِ آيَةَ ٣»<sup>(١)</sup>. فهو كمال وظهور للدين بالحق على الدين كله، ويتضمن هذا الكمال ضربين من أضرب الهيمنة؛ أحدهما هيمنة تصديقية استيعابية، والآخر هيمنة تصحيحية تجاوزية.

فالهيمنة التصديقية متجلية في قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمُشْرِكَةَ وَالنَّبِيِّنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾<sup>(٨٠)</sup> وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ<sup>(٨١)</sup> فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ<sup>(٨٢)</sup> أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ<sup>(٨٣)</sup> قُلْ ءَأَمِنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿ (آل عمران: ٨٠ - ٨٤)، فالهيمنة في هذه الآيات الكريمة متضمنة في عين التصديق، فالتصديق في هذه الآيات تصديق شهد له الله، وأخذ عليه ميثاق النبيين فقالوا: (أَقْرَرْنَا) وجعل المتولون عنه بعد ذلك فاسقين ﴿فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران: ٨٢)، ف«دين الله» هنا، هو هذا الدين المصدق عليه من لدن نبي الختم ﷺ، في غير

١- صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن «سورة المائدة» باب قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمْتُهُ عَلَيْكُمْ يَعْطَىٰ وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، الآية ٣. رقم الحديث ٤٢٦٧.

تفرقة بين رسل الله والإيمان بهم جميعاً. وذلك من أبرز أضرب الهيمنة.

وأما الهيمنة التصحيحية؛ فهي عملية البيان التي قام بها القرآن المجيد بالنسبة للتحريف والتبديل والإخفاء الذي طرأ على الكتب السابقة، مصداقاً لقوله عز وجل في سورة المائدة: ﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ (المائدة: ١٥ - ١٦)، وقوله سبحانه في السورة نفسها: ﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ (المائدة: ١٩)، وقوله سبحانه في سورة النحل: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ (النحل: ٦٤)، وقد شغل هذا البيان حيزاً مهماً من القرآن الكريم (بل القرآن الكريم كله بيان)، وشمل أصول الإيمان والإسلام والتشريع وغيرها.

ففيما يخص الإيمان، تم تصحيح وضبط التصورات عن الله وعن رسوله عيسى عليه السلام وأمه مريم الصديقة؛ يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ (المائدة: ١٧)، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ (المائدة: ١٨)، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي

إِسْرَائِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ  
 وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ  
 اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْهَوْا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ  
 الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونََهُ  
 وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن  
 قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا بِكُلَّانِ الطَّلَعِمْ أَنْظُرُ كَيْفَ  
 بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿المائدة: ٧٢ - ٧٥﴾،  
 ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ  
 اللَّهِ قَالَ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَن أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِن كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ  
 تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبِ ﴿١٣١﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا  
 مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَن أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي  
 كُنْتُ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿المائدة: ١١٦ - ١١٧﴾،  
 وقوله سبحانه: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ  
 اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلٰهًا وَاحِدًا  
 لَّا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿التوبة: ٣١﴾، وقوله  
 سبحانه داعيا أهل الكتاب إلى قول الحق: ﴿يٰٓأَهْلَ الْكِتٰبِ لَا تَغْلُوا  
 فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولٌ  
 اللَّهِ وَكَلِمَةٌ أُلْقِيََتْهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَتَأْمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلٰثَةٌ  
 انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحٰنَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي  
 السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣١﴾ لَن يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ  
 أَن يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنْكِفْ عَن عِبَادَتِهِ  
 وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمُ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿النساء: ١٧١ - ١٧٢﴾.

وفي علاقة بالإيمان، بين القرآن حقيقة صورة الملائكة تصحيحا للمعتقدات  
 التي كانت سائدة عند أهل الكتاب، يقول عز وجل: ﴿لَن يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ

أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿ (النساء: ١٧٢) ، ويقول سبحانه  
 فيمن زعم أن الملائكة بنات لله سبحانه: ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ  
 مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتَانًا إِنَّكُم لَقَوْلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿ (الإسراء: ٤٠) ، ويقول سبحانه:  
 ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنْتَانًا  
 وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿ (الصفات: ١٤٩ - ١٥٠) ، ويقول سبحانه ردا على  
 من اعترض على إرسال بعض الملائكة دون آخرين: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ  
 الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمَنْ أَلَّاسِ إِنْكَ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿ (الحج: ٧٥) .

وكذلك الشأن بخصوص الرؤية المهيمنة لمسألة الوحي، يقول سبحانه:  
 ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى  
 إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ  
 وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿ (النساء: ١٦٣) ، ويقول سبحانه:  
 ﴿ وَمَا كَانَ لَشَيْءٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ  
 بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿ (الشورى: ٥١) ، ويقول سبحانه: ﴿ وَلَوْ  
 نَقُولُ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقْوَابِ ﴿ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ  
 مِنْ أَحَدٍ عِنْدَهُ حَاجِزِينَ ﴿ (الحاقة: ٤٤ - ٤٧) ، ويقول سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ  
 افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ  
 اللَّهُ ﴿ (الأنعام: ٩٣) ، ويقول سبحانه: ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ  
 نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴿ (الأنعام: ١٢٤) .

- كما قدم الرؤية المهيمنة التصحيحية لزعم انتساب إبراهيم ومن معه  
 من الرسل عليهم السلام جميعا إلى اليهودية أو النصرانية؛ يقول تعالى  
 ﴿ أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ كَانُوا  
 هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ  
 اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿ (البقرة: ١٤٠) ، ويقول سبحانه: ﴿ يَتَأَهَّلَ



الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَتَأْتُمْ هَتُولَاءَ حَجَّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ (آل عمران: ٦٥ - ٦٧)، ويقول سبحانه: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَنْهَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصْرَانِيًّا يَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ (البقرة: ١٣٣ - ١٣٥)، وقوله سبحانه مفسدا زعم اليهود والنصارى ومنهيا له: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٠﴾ شَاكِرًا لِنِعْمَةِ آجِبْتَهُ وَهَدَانِهِ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣١﴾ وَعَآيِنَتْهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنِّهٖ فِي الْآخِرَةِ لِمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٢﴾ ثُمَّ أُوحِيَآ إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٣﴾ (النحل: ١٢٠ - ١٢٣).

- كما قدم القرآن الكريم الرؤية المهيمنة عن طبيعة علاقة اليهود والنصارى بالله وحقبة أفضليتهم على باقي الناس؛ يقول سبحانه: ﴿قُلْ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦١﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧٧﴾ قُلْ إِنْ أَلْمَمْتُمْ عَلَى الَّذِينَ يَفْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْفِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالِيِّ وَالشَّهَادَةُ فَيَنْتَقِمُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ (الجمعة: ٦ - ٨)، ويقول سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٦﴾ وَلَنَجْذِئُنَّ مِنْكُمْ آخَصَصَ النَّاسَ عَلَىٰ حَيَاتِهِمْ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوْمَئِذٍ أُولَٰئِكَ لَوْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْجَاهِهِ ۗ مِنَ الْعَذَابِ أَلَّا يَعْلَمَ ۗ وَاللَّهُ بِصِيرٍ يَمَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ (النحل: ٦٦ - ٦٨).

(البقرة: ٩٤ - ٩٦)، ويقول سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۗ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّكَارِ ۗ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ (البقرة: ٨٠ - ٨١)، ويقول تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ (البقرة: ١١١ - ١١٢)، ويقول سبحانه المهيمن في مسألة دخول الجنة: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَبْرًا ﴿١٢٤﴾﴾ (النساء: ١٢٤).

- كما أسس القرآن المجيد القاعدة المهيمنة لمسألة الحلال والحرام، وهي أن كل ما هو طيب حلال من غير إسراف، وكل ما هو خبيث حرام ولو أعجبك كثرته، وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿يَبْنَیْ ءَادَمَ حُدُودًا زَيْنَتًا عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نَفِّصُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأعراف: ٣١ - ٣٣)، وقوله سبحانه مفسلا في سورة الأنعام: ﴿وَقَالُوا هٰذِهِ ءَانِعَةٌ وَحَرَّتْ جِجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشِئَ رِزْقِهِمْ وَأَنْعَمَ حَرِمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمَ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتُرُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هٰذِهِ الْإِنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَرْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٧﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ

أَفْتَرَاءَ عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴿١٤٠﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ  
جَنْبَ مَعْرُوشَتِي وَعَجَّرَ مَعْرُوشَتِي وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْلِيفًا أُكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ  
وَالرَّمَامَ مُتَشَكِّبًا وَعَيْرَ مُتَشَكِّبَةً كُلُّوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ  
حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ  
وَفَرَسَاتٌ كُلُّوا مِنْهَا رِزْقُكُمْ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ  
﴿١٤٢﴾ ﴿١٤٢﴾ ثَمَنِيَّةٌ أَرْوَجُ مِنَ الصَّانِ أَثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ أَثْنَيْنِ قُلْ ءَالِدُكَرَيْنِ حَرَّمَ  
أَمِ الْأَنْثَيْنِ أَمَا اسْتَمَلْتَ عَلَيْهِ أَرْحَامَ الْأَنْثَيْنِ نَبِيُّنِي يَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ  
﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ أَثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ أَثْنَيْنِ قُلْ ءَالِدُكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأَنْثَيْنِ  
أَمَا اسْتَمَلْتَ عَلَيْهِ أَرْحَامَ الْأَنْثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّكُمْ اللَّهُ  
بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ اللَّهُ  
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ  
يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ  
فِسْقًا أَهْلٌ لِبَغْيِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾  
وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا  
عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايِ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ  
جَزَيْنَهُمْ بِغَيْرِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ  
وَسِعَتْ وَلَا يَرُدُّ بَأْسَهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ  
مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ  
حَتَّى دَاخُوا بِأَسْنَانِهِمْ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ  
وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾  
قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ  
مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ  
بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴿١٥٠﴾ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا  
بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ

وَأَيَّاهُمْ<sup>ط</sup> وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ<sup>ط</sup> وَلَا تَقْنَلُوا<sup>ط</sup> النَّفْسَ  
الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ<sup>ط</sup> وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ  
الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا<sup>ط</sup> الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا  
تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا<sup>ط</sup> وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ<sup>ط</sup> وَبِعَهْدِ اللَّهِ  
أَوْفُوا<sup>ط</sup> ذَلِكَم<sup>ط</sup> وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا  
فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ  
تَتَّقُونَ ﴿ (الأنعام: ١٣٨ - ١٥٢) .

- كما قدم كتاب الختم الرؤية المهيمنة لمسألة البيع والربا،  
وذلك لأن اليهود لما أرادت أن تبرر تعاملها بالربا وتديسها على  
الناس قالت إنما البيع مثل الربا وهو ما دحضه الله عز وجل وبين زيفه  
في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ  
الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ  
الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ  
فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحُو اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ  
وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿ (البقرة: ٢٧٥ - ٢٧٦) . وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ  
يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ  
بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن  
رَّبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا  
خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحُو اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿  
(البقرة: ٢٧٥ - ٢٧٦) ، كما قدم القرآن الكريم الرؤية المهيمنة في التعامل  
مع المخالف؛ فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ  
أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿ (فصلت: ٣٤) ، وقال  
عز من قائل: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ  
أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿ (المائدة: ٨) ، وقوله تعالى مقرا حتمية الاختلاف: ﴿ وَلَوْ

شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَيْنَكُمْ فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿ (المائدة: ٤٨) ، وقال تعالى في شأن الأمم السالفة: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ حَلَّتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مِثْلُ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٤) ، وقال تعالى مبينا أنه لا يحمل أحد وزر الآخر ﴿ وَلَا نُزِرْ وَأُزِرْهُ وَنُزِرْ أُخْرَى ﴾ (الأنعام: ١٦٤) ، وقال تعالى في بيان مسؤولية كل مخالف عن عمله وجزائه ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة: ٧-٨) ، فوجب لهذا التنافس في الخير وليس في الشر ولهذا خلقنا الله مختلفين والله لا يضيع أجر المصلحين ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ﴾ (آل عمران: ١٩٥) .

ويمكن القول إن القرآن الكريم من سورة الفاتحة إلى سورة الناس كله تصوير وبناء وبيان، فهو يعرض التصورات ويصوبها وينشئ تصورات وروى مهيمنة وحكمة في كل المجالات.

#### ٧) الشهادة على الناس:

افتضى كمال الدين وإتمام البناء، ختم النبوة وانقضاء الوحي وتوقفه، فلم تعد البشرية في حاجة إلى وحي جديد ولا إلى نبي أو رسول جديد، فلديها كتاب في أرقى صور الكمال وأبهاها يسايرها في رقيها وتقدمها، كلما ارتقت اكتشفت أن هذا الكتاب أرقى منها وأسمى، وكلما اقتربت منه أكثر اكتشفت أن بينها وبينه سنوات ضوئية عديدة لاكتشاف أسراره وحقايقه، وكلما بلغت أفقا ما، انفتحت لها آفاق أخرى لا حصر لها، فيتقرر لديها بطريقة متجددة أنه كتاب لا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد، فالقرآن الكريم نبي ورسول مقيم بين ظهراني العباد شاهد رقيب عليهم. فإذا تأكد عندنا أن القرآن المجيد معجز، وأنه قول خالق القائلين كلهم

من أول الدنيا إلى أن تنتهي، ثم نظرنا بعد ذلك إلى هذا القرآن المجيد باعتباره فرقانا، يعطي الإنسان الفيصل بين الخطأ والصواب، وبين الحق والباطل، وبين الحسن والقبح، وبين الصلاح والفساد، وبين الشدة واللطف، إلى غير ذلك من الأمور التي يمكن أن نرسم أوساطها بجلاء من خلال الاستمداد من القرآن الكريم. فإنه سوف يتجلى لنا بما لا يذر شكاً أن هذا القرآن المجيد بالإضافة إلى فضله العظيم، كتاب في قمة العلو، والسمو، والشهادة، حُقَّ له أن يؤتمن، ويهيمن على تراث النبوات والرسالات.

فهذه المحددات المفهومية للتصديق والهيمنة هي التي تعطينا الفيصل بين ما هو من عند الله وبين ما هو ليس كذلك، فلا مكان لنص يزعم أنه من عند الله وفي الوقت نفسه يقدم «الإله» في صورة ناقصة، أو على صورة بشر، أو على صورة حيوان،... إلخ، تتعالى عليه مخلوقاته البشرية حكمة وذكاء. ولا مكان لنص يقدم الأنبياء على أنهم زناة وقتلة وسفاحين وخونة...!!! ولا مكان لنص طافح بفواحش الأخلاق في أحط صورها، وأقذر معانيها...!!! ولا مكان لنص يحلل الحرام ويحرم الحلال، ولا مكان لنص لا يعطينا من البراهين الواضحة والكافية للحكم على صحته وصحة ما جاء به، ولا مكان لنص غير معجز في مبناه ومعناه...!!!

## خاتمة الباب

لا يسعني في خاتمة هذا الباب إلا أن أقدم من هو أفصح مني لسانا وأبلغ بيانا، فمهما اجتهدت في صياغة خلاصات هذا الباب فلن أبلغ الأسلوب الرائع واللوزعية الفذة والتصوير الجمالي الأخاذ للدكتور العلامة عبد الله دراز رحمه الله. فليعذرني القارئ فما توأرت عجزا ولا تخاذلا، فأني باحث في هذا الموضوع سيتهي إلى الخلاصات نفسها ويبسط السؤال نفسه، لكنني أنبت عني من هو أقدر على توصيل القول إليك أيها القارئ الكريم. فلما عثرت على هذا الكلام النفيس لأستاذنا دراز رحمه الله وجدته ملخصا لأهم مضامين التصديق والهيمنة وهو رحمه الله المتبحر ذو البصيرة النافذة في دراسات الدين. فقررت أن أفرد في خاتمة الباب بالذکر حتى يبقى مصدقا ومهيما على ما جاء في ثانيا هذا الباب.

يقول رحمه الله: «فالقرآن يعلمنا أن كل رسول يرسل، وكل كتاب ينزل، قد جاء مصدقا ومؤكدا لما قبله؛ فالإنجيل مصدق ومؤيد للتوراة، والقرآن مصدق ومؤيد للإنجيل والتوراة ولكل ما بين يديه من الكتب (الآيات ٤٦-٤٧ من سورة المائدة)، وقد أخذ الله الميثاق على كل نبي إذا جاءه رسول مصدق لما معه أن يؤمن به وينصره (الآية ٨١ من سورة آل عمران).

يقول: غير أن هاهنا سؤالان يحق للسائل أن يسأله:

أليست قضية هذا التصادق الكلي بين الكتب السماوية أن تكون الكتب المتأخرة إنما هي تجديد للمتقدمة وتذكير بها، فلا تبدل فيها معنى، ولا تغير حكما، وإلا كيف يقال إنها تصدق إلخ بينما هي تبدل وتعديل، وإذا كان من قضية التصادق الكلي بين الكتب ألا يغير المتأخر منها شيئا من المتقدم، فهل الواقع هو ذلك؟

الجواب: ليس الواقع ذلك، فقد جاء الإنجيل بتعديل بعض أحكام التوراة

إذ أعلن عيسى أنه جاء ليحل لبني إسرائيل بعض الذي حرم عليهم (الآية ٥٠ من سورة آل عمران)، وكذلك جاء القرآن بتعديل بعض أحكام الإنجيل والتوراة إذ أعلن أن محمداً جاء ليحل للناس كل الطيبات، ويحرم عليهم كل الخبائث؛ ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم (الآية ١٥٧ من سورة الأعراف).

ولكن يجب أن يفهم أن هذا وذاك لم يكن من المتأخر نقضا للمتقدم، ولا إنكارا لحكمة أحكامه في إبانها، وإنما كان وقوفاً بها عند وقتها المناسب، وأجلها المقدر... مثل ذلك مثل ثلاثة من الأطباء جاء أحدهم إلى الطفل في الطور الأول من حياته فقرر قصر غذائه على اللبن، وجاء الثاني إلى الطفل في مرحلته التالية فقرر له طعاما لينا وطعاما نشويا خفيفا، وجاء الثالث في المرحلة التي بعدها، فأذن له بغذاء قوي كامل.

لا ريب أن ها هنا اعترافا ضمنيا من كل واحد منهم بأن صاحبه كان موفقا كل التوفيق في علاج الحال التي عرضت عليه... نعم إن هناك قواعد صحية عامة في النظافة والتهوية والتدفئة، ونحوها لا تختلف باختلاف الأسنان، فهذه لا تعديل فيها ولا تبديل، ولا يختلف فيها طب الأطفال والناشئين عن طب الكهول الناضجين.

هكذا الشرائع السماوية كلها صدق وعدل في جملتها وتفصيلها، وكلها يصدق بعضها بعضا من ألفها إلى يائها، ولكن التصديق على ضربين: تصديق القديم مع الإذن ببقائه واستمراره، وتصديق له مع إبقائه في حدود ظروفه الماضية، ذلك أن الشرائع السماوية تحتوي على نوعين من التشريعات: (تشريعات خالدة) لا تتبدل بتبدل الأصقاع والأوضاع (كالوصايا التسع، الآية ١٥٧ من سورة الأعراف) ونحوها؛ فإذا فرض أن أهل شريعة سابقة تناسوا هذا الضرب من التشريع جاءت الشريعة



اللاحقة بمثله أي أعادت مضمونه تذكيرا، وتأكيدا له. (وتشريعات موقوتة) بأجال طويلة أو قصيرة فهذه تنتهي بانتهاء وقتها وتجيء الشريعة التالية بما هو أوفق بالأوضاع الناشئة الطارئة... وهذا والله أعلم، هو تأويل قوله تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ١٠٦).

ولولا اشتمال الشريعة السماوية على هذين النوعين ما اجتمع فيها العنصران الضروريان لسعادة المجتمع البشري: عنصر الاستمرار الذي يربط حاضر البشرية بماضيها وعنصر الإنشاء والتجديد، الذي يعد الحاضر للتطور والرقى اتجاها إلى مستقبل أفضل وأكمل.

ونحن إذا نظرنا نظرة فاحصة إلى سير التشريع السماوي من خلال الشرائع الثلاث نجد فيها هذين العنصرين واضحين كل الوضوح، إذ نجد كل شريعة جديدة تحافظ على الأسس الثابتة التي أرستها الشريعة السابقة، ثم تزيد عليها ما يشاء الله زيادته.

نرى شريعة التوراة مثلا قد عنيت بوضع المبادئ الأولية لقانون السلوك «لا تقتل» و«لا تسرق»... إلخ ونرى الطابع البارز فيها هو طابع تحديد الحقوق وطلب العدل والمساواة بينها... ثم نرى شريعة الإنجيل تجيء بعدها فتقرر هذه المبادئ الأخلاقية وتؤكد لها، ثم تترقى فتزيد عليها آدابا مكملة: «لا تراء الناس بفعل الخير، أحسن إلى من أساء إليك»؛ ونرى الطابع البارز فيها التسامح والرحمة والإيثار والإحسان... وأخيرا تجيء شريعة القرآن فنراها تقرر المبدأين كليهما في نسق واحد: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النحل: ٩٠) مقدره لكل منهما درجته في ميزان القيم الأدبية مميزة بين المفضول والمنها والفاضل: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (الشورى: ٤٠)، ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا

عُوقِبْتُمْ بِهِ<sup>ط</sup> وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿النحل: ١٢٦﴾، ثم نراها وقد أضافت إليهما فصولاً جديدة صاغت فيها قانون آداب اللياقة، رسمت بها مناهج السلوك الكريم في المجتمعات الرفيعة في التحية والاستئذان، والمجالسة والمخاطبة إلى غير ذلك... كما نراه في سورة النور والحجرات والمجادلة.

هذا مثال من أمثلة الجمع في سير التشريعات السماوية بين عنصر المحافظة على القديم الصالح، وعنصر الأخذ بالجديد الأصح، والأمثلة كثيرة...

هكذا كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة ولبنات متراكمة في بنيان الدين والأخلاق وسياسة المجتمع، وكانت مهمة اللبنة الأخيرة منها أنها أكملت البنيان وملأت ما بقي فيه من فراغ، وأنها في الوقت نفسه كانت بمثابة حجر الزاوية الذي يمسك أركان البناء. وصدق الله حين وصف خاتم أنبيائه بأنه ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨)، وحين وصف اليوم الأخير من أيامه بأنه كان إتماماً للنعمة وإكمالاً للدين: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣) وصدق رسول الله ﷺ حين صور الرسالات السماوية في جملتها أحسن تصوير: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وجمله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»<sup>(١)</sup>.

إنها إذا سياسة حكيمة رسمتها يد العناية الإلهية، لتربية البشرية تربية تدريجية لا طفرة فيها ولا ثغرة، ولا توقف فيها ولا رجعة، ولا تناقض ولا

١ - البخاري، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين.

تعارض، بل تضافر وتعانق، وثبات واستقرار، ثم نمو واكتمال وازدهار»<sup>(١)</sup>.

وقد استند بعض أهل الكتاب إلى آيات التصديق للتدليل على أن كتب التوراة والإنجيل لم يطرأ عليها تحريف وتبديل، وقالوا بما أن القرآن يصدقها فهي كلها حق، وهنا يأتي دور الهيمنة ليتبين أن القرآن جاء مؤيداً وموافقاً لما جاء فيها من الحق، مبيناً ومظهراً لما تم إخفاؤه منها وما تم تبديله وتحريفه. يقول الدكتور عبد الله دراز: «ونرى الآن أن القرآن أضاف إلى هذه الصفة «مُصَدِّقاً» صفة أخرى، إذ أعلن أنه جاء أيضاً «مُهَيِّمًا» على الكتب أي حارساً أميناً عليها.. ومن قضية الحراسة الأمانة على تلك الكتب ألا يكتفي الحارس بتأييد ما خلده التاريخ فيها من حق وخير، بل عليه فوق ذلك أن يحميها من الدخيل الذي عساه أن يضاف إليها بغير حق، وأن يبرز ما تمس إليه الحاجة من الحقائق التي عساها أن تكون قد أخفيت منها.

وهكذا كان من مهمة القرآن أن ينفي عنها الزوائد، وأن يتحدى من يدعي وجودها في تلك الكتب ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران: ٩٣)، كما كان من مهمته أن يبين ما ينبغي تبيينه مما كتموه منها ﴿يَتَأَهَّلَ أَلْكُتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ أَلْكُتَابِ﴾ (المائدة: ١٥)<sup>(٢)</sup>.

١- كتاب «الدين»، مصدر سابق، ص ١٧٧ - ١٨٠.

٢- كتاب «الدين»، مرجع سابق، ص ١٨١.



## الباب الثاني

المحاور الديني والتعارف الحضاري  
من خلال مفهومي التصديق والهيمنة



الاختلاف مسألة لابتست العمران البشري، عبر مختلف أطوار التاريخ وحقبه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ (هود: ١١٨ - ١١٩)، والاحتكام إلى حكمة كتاب الله المتعالية في هذا الاختلاف مسألة لا محيد عنها لمن رام الهدى، باعتباره الكتاب الخاتم المستوعب لرسالات الله، المصدق لها والمهيمن عليها. ومن المعلوم أن الدين الذي جاءت به الكتب واتبعه الرسل جميعا عليهم السلام في جوهره واحد لا اختلاف فيه، غير أن الناس مزجوا هداية الدين بشوائب النزاعات الأرضية وما يرفدها من أهواء، وألبس كل ذلك لبوس الدين، فكان ما يمكن رصده عبر تاريخ التدين من اختلاف مردّه إلى الأبعاد التنازعية والاختلافات في الفهم والتشاكسات في التنزيل مما ترسب بعضه فوق بعض، فأنتج هذا الواقع الاختلافي المتشعب والحافل والذي يقتضي دراسات ضافية ورصينة لسبر أغواره وكشف بنوده.

والذي ينبغي أخذه بعين الاعتبار أن هذه الأمم والشعوب المتعددة لا تعيش في عوالم متعددة، وإنما يجمعها كوكب واحد وحيد هو هذه الأرض مسرح الحياة، فالبشرية كلها، بمؤمنها وكافرها ومهتديها وضاليتها، تشكل أسرة واحدة تعيش داخل بيت واحد، فلا بد من الاعتراف والوعي بهذه الحقيقة، لأن الوعي بها يقود إلى الاعتراف بالآخر من أفراد البشرية وشعوبها، وهو اعتراف ذو بعدين؛ الأول ديني، والثاني تعارفي/حضاري. وحول هذين البعدين صيغت مباحث هذا الباب من زاوية التصديق والهيمنة، بالاحتكام إلى المنطلقات التي يقدمها هذان المفهومان في الحوار الديني والتعارف الحضاري.

فالكلام في هذا الباب ليس عن منهج الحوار وأساليبه وأدابه وقواعده ومجالاته، فهذا كتبت فيه كتب كثيرة، وأنجزت فيه بحوث وما زالت تنجز،

ولكن حسبنا في هذا الباب أن نتبين قدر المستطاع الأسس السواء والقواعد  
المشتركة التي يقوم عليها كل من الحوار الديني والتعارف الحضاري  
من خلال ما تبين لنا من تجليات لمفهومي التصديق والهيمنة.



## الفصل الأول

المحاور الديريني من خلال  
مفهوم التصديق والهيمنة





رأينا في الباب الأول أن خط الرسالات ودور الرسل كان تكامليا، فاللاحق يوافق السابق ويحيي ما اندرس من توقيعه، إلى أن وصلنا إلى عهد التوراة ورأينا أنها جاءت مشتملة على رسالة التوحيد التي جاءت بها صحف إبراهيم ﷺ كما جاءت بأحكام وشرائع منها ما هو خالد ومنها ما هو خاص ببني إسرائيل وبطبيعة السياقات الذاتية والموضوعية التي وجدوا فيها، وجاء من بعد موسى أنبياء لا يعلم عددهم إلا الله كلهم عملوا بالتوراة واتبعوها قرونا بعد نزولها، إلى أن بعث عيسى ﷺ وجاء بالإنجيل موافقا لتوراة موسى ﷺ محييا لأحكامها، ومحللاً لبعض ما حرم على بني إسرائيل بسبب ظلمهم. وانقطع الوحي وتوقف إرسال الرسل ما شاء الله من الزمن<sup>(1)</sup>، وطال العهد على بني إسرائيل واشترى رهبانهم وأحبارهم بكتب الله ثمنا قليلا، ووقع الإخفاء والتحريف والتبديل.. وعن هذا التحريف والزيادة والنقصان الذي أصاب توراة موسى وإنجيل عيسى ﷺ، جاء القرآن بموقف ثنائي منهما: مصدقا ومهيما، تصديقا وهيمنة لا فصل بينهما.

فليس جائزا إذن، من منظور القرآن الكريم، الدخول في الحوار مع الآخر من أهل الكتاب من غير استحضار هذين المحددين (التصديق والهيمنة)، فمفهوم التصديق والهيمنة إذن هو الذي يؤطر لنا قضية الحوار وفي أي اتجاه يجب أن يسير، وفي أي المجالات يدور، فهما بمثابة البوصلة التي ترسم الاتجاهات التي يجب الحركة نحوها في مسألة الحوار الديني مع أهل الكتاب.

١- عَنْ سَلْمَانَ، قَالَ: «فَتَرَّةُ بَيْنِ عَيْسَى، وَمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ، سِتُّ مِائَةِ سَنَةٍ». أخرجه البخاري في صحيحه (٧/٢٧٧ مع فتح الباري)، كتاب مناقب الأنصار، باب إسلام سلمان الفارسي، رقم الحديث (٣٩٤٨).

## المبحث الأول: مفهوم الحوار الديني

أصل الحوار مادة «حور» في اللغة، وجاء في اللسان «الحور»: الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، وحارَ إلى الشيء وعنه حوراً ومَحَاراً ومَحَارَةً وحُوراً: رجع عنه وإليه<sup>(١)</sup>. وفي مقاييس اللغة<sup>(٢)</sup> الحاء والواو والراء ثلاثة أصول: أحدها لون، والآخر الرجوع، والثالث أن يدور الشيء دوراً. فأما الأول فالحور: شدة بياض العين في شدة سوادها. أما الرجوع، فيقال حارَ، إذا رجع، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿الانشقاق: ١٤ - ١٥﴾. والعرب تقول: كلمته فما رجع إلي حواراً وحواراً ومحورةً وحويراً. والأصل الثالث المحور: الخشبة التي تدور فيها المحالة.

و«حور» في الاصطلاح، تعني التردد إما بالذات وإما بالفكر، والتحاور والحوار والمحاورة المرادة في الكلام كما ذكر الراغب الأصفهاني في المفردات<sup>(٤)</sup>.

فالحوار إذن سواء في اللغة أو الاصطلاح يعني الرجوع والمراجعة والرد، وهذا ما يتم أثناء عملية الحوار سواء كان بين طرفين أو أطراف متعددة فهم يتراجعون الأقوال فيما بينهم ويرد بعضهم إلى بعض القول.

ومركب «الحوار الديني»، يعني أن هذا الحوار يقوم على أساس ديني وفي قضايا دينية تهتم أتباع هذا الدين أو ذلك. وبالرجوع إلى القرآن الكريم وفي علاقة بموضوعنا هذا نجد استعمل لفظ الجدل غير لفظ الحوار الذي استعمل في سياق آخر<sup>(٥)</sup>، مشروطاً بـ «التي هي أحسن» سواء في موضعي

١- لسان العرب لابن منظور، مادة «حور».

٢- مقاييس اللغة لابن فارس، مادة «حور».

٣- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة «حور».

٤- التأصيل النظري للدراسات الحضارية، الحوار مع الغرب، آلياته أهدافه دوافعه، تأليف الأستاذة الدكتورة منى أبو الفضل والدكتورة أميمة عبود، والأستاذ الدكتور سليمان الخطيب، تحرير أ.د. منى أبو الفضل ود.نادية محمود مصطفى، دار الفكر، ط١، ١٩٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص ٨١-٨٢.

النهي والأمر، وذلك لأن الجدل يكون سلبيًا وإيجابيًا، عن حق وعن باطل، بعلم وبغير علم، وهذا ما لا نجد في مفهوم الحوار، فهو لا يكون إلا من أجل بلوغ الحقيقة، ولا يكون إلا عن علم فلا يمكن للمحاور أن يحاور في قضية لا علم له بها وإلا أصبح فعله سجاليًا فالحوار بهذا الوصف يمثل التي هي أحسن التي أمر بها الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

فالجدال من أكثر الأساليب تداخلًا مع أسلوب الحوار، لكن الحوار ليس هو الجدل، ذلك «أن الحوار هو شكل من أشكال التعاون collaborative بين جانبيين أو أكثر تجاه هدف مشترك، بينما الجدل هو شكل من أشكال التعبير عن المعارضة oppositional: فهناك جانبان كل منهما ضد الآخر، ويحاول كل منهما أن يثبت خطأ الآخر. في الحوار الهدف الأساسي هو إيجاد أرضية مشتركة، في الجدل الهدف الأساسي هو الفوز بالمنظرة. في الحوار يحاول كل طرف أن يستمع إلى الآخر للوصول إلى فهم واتفق مشترك، في الجدل يتصيد كل طرف عيوب الآخر ونقصه وأخطائه لمهاجمة أفكاره وحججه. في الحوار تتسع المساحة لإمكانية تغيير وجهة نظر أحد الأطراف، بينما في الجدل يؤكد كل طرف على وجهة نظره، وفي الحوار يتم الكشف عن الافتراضات من أجل إعادة تقويمها، وفي الجدل يتم الدفاع عن الافتراضات وكأنها حقائق مطلقة. في الحوار يوجد نوع من الاستبطان وإعادة مراجعة وفحص الدوافع والمشاعر، بينما الجدل هو نقد الآخرين فقط، في الحوار توجد إمكانية للتوصل لحلول أفضل من الحلول الأصلية، في الجدل يتم الدفاع باستماتة عن وجهة نظر كل طرف. يؤدي الحوار إلى نوع من الأفق الواسع والذهنية المنفتحة التي تعترف بخطئها ولديها رغبة في التغيير، أما الجدل فينشئ ذهنية منغلقة ترى أنها صحيحة دائمًا. في الحوار تبقى النهايات دائمًا مفتوحة، بينما في الجدل لا بد من

الوصول إلى خاتمة»<sup>(١)</sup>. ولذلك نجد القرآن الكريم يؤكد على ﴿يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ في الجدل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: ٤٦)، وقوله سبحانه: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥).

وفي القرآن ما يدل على هذا الفرق، فقد ورد لفظ الجدل في القرآن الكريم تسعة وعشرين مرة كلها في سياق الذم، إلا في ثلاثة مواضع وهي: قوله تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: ٤٦)، وقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ (المجادلة: ١).

أما بقية المواضع في القرآن الكريم فإما أن تكون في سياق عدم الرضا عن الجدل وإما عدم جدواه، أو لأنه يفتقد شروطاً أساسية كطلب الحق والعلم، أو يطلقه الكفار على دعوة الرسل كما قال تعالى: ﴿قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾ (هود: ٣٢).

ونجد في كتب اللغة أن من معاني الجدل: اللدُدُ في الخصومة والقدرة عليها، والجدل: مقابلة الحجّة بالحجة، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما ضلَّ قومٌ بعدَ هُدًى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»<sup>(٢)</sup>.

ويتضح لنا أن كلمة الجدل تدور حول معنيين هما:

المعنى الأول: الغلبة والقوة والصلابة، وهو مأخوذ من الجدل الذي هو شدة قتل الحبل، وإذا نقلنا هذا المعنى اللغوي المحسوس إلى الجوانب

١- المرجع نفسه .

٢- الحديث رواه الترمذي في جامعه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الزخرف، ح ٢٢٥٢، (٢٢٢/٥)، وابن ماجه في مقدمة سننه، باب اجتناب البدع والجدل، ح (٤٨)، (١٩/١)، وغيرهما من حديث أبي أمامة مرفوعا، وقال الترمذي: (هذا حديث حسن صحيح) وأخرجه الحاكم في المستدرک على الصحيحين، كتاب التفسير، حديث رقم ٢٦٠٥. وأخرجه أحمد في مسنده رقم ٢١٥٨٧.

الفكرية والعقلية فسنجد بينهما تطابقاً واتفاقاً؛ لأن كل واحد من المتجادلين يحاول بقوته وفكره أن يجادل (الآخر) ويفتله «يثبته» عن رأيه، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بقوة الدليل وصلابة الفكرة.

المعنى الثاني: اللدّد في الخصومة مع القدرة عليها، وهذا المعنى اللغوي يتفق مع نوع من أنواع الجدل الفكري وهو اللجاج الذهني، الذي لا يكون الغرض منه الوقوف على الحقيقة أو الوصول إلى الصواب وإنما مجرد الجدل لأجل الجدل وهو ما يطلق عليه العلماء الجدل المذموم ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾<sup>(١)</sup>.

وفي الاصطلاح، عرّفه الجرجاني بقوله: هو دفع المرء خصمه عن إفساد قوله، بحجة، أو شبهه، أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة في ﴿ وَقَالُوا ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ (الزخرف: ٥٨)، ويذمّ الجدل؛ لأن فيه أحياناً تغيير للحق وقلبه للباطل، «فالجدل المذموم ما يكون لدفع الحق، أو تحقيق العناد، أو ليلبس الحق بالباطل وغير ذلك من الوجوه المنهي عنها»، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله «والمذموم شرعا ما ذمه الله ورسوله كالجدل بالباطل والجدل بغير علم والجدل في الحق بعدما تبين...»<sup>(٢)</sup>.

ويبقى الجدل الممدوح هو الذي يقصد به تأييد الحق أو إبطال الباطل أو أفضى إلى ذلك بطريق صحيح..

ويمكن أن نخلص إلى القول إن يمكن أن يكون الجدل حوارا، كما سمي

١- سورة الزخرف، الآية ٥٨.

٢- ابن تيمية في كتابه (درء تعارض العقل والنقل) الجزء ٧ صفحة ١٥٦، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

الله ذلك في كتابه العزيز ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، ولا يمكن أن يكون الحوار جدالاً.

فهدف الحوار، إذن، هو شرح وجهات النظر وتبيان المعطيات التي تقوم عليها، وفي الوقت نفسه الانفتاح على الآخر لفهم وجهة نظره ثم تفهمه. ذلك بأن التفهم لا يكون من دون فهم متبادل. والحوار هو الطريق إلى استيعاب المعطيات والوقائع المكونة لمواقف الطرفين المتحاورين، ثم إلى تفهمهما.

والدعوة إلى الحوار الديني تستمد مشروعيتها من القرآن الكريم، فبأمر منه عز وجل وجب على المسلمين دعوة غيرهم إلى الحوار بالتي هي أحسن، فالدعوة إلى الحوار هي طريق استبانة الحق والهدى وتبينه، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّدْ لَهُم بِآيَاتِنَا هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥)، وقال عز وجل: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَاللَّهُنَّ وَاللَّهُمُّ وَحْدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

ويعلم الله عز وجل نبيه وهو يأمره بأن يخاطب أهل الكتاب ويحاججهم، مبدأ أساساً وهو أنه ليس لأحد من الأطراف المتحاورية أن يدعي امتلاك الحقيقة المطلقة ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ: ٢٤). إذ البحث عن الحقيقة، حتى من وجهة نظر الآخر المختلف أو المخالف، هو أسمى غاية من الحوار. وهذا أبرز قاعدة من قواعد الحوار وآدابه، لقد أمر الرسول ﷺ بأن يضع نفسه في مستوى من يحاورهم، تاركا الحكم لله؛ وهو أسمى أسلوب لحوار هادئ، وذهب إلى أبعد من ذلك عندما قال في الآية التالية مباشرة: ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا

تَعْمَلُونَ ﴿سبأ: ٢٥﴾. فكان من آداب الحوار - بل من المبالغة في هذه الآداب أن وصف اختياره للحق - وهو على حق - بأنه «إجرام» (في نظرهم)؛ ووصف اختيارهم للباطل - وهم على باطل - بأنه مجرد «عمل»، ثم ترك الحكم لله ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ (سبأ: ٢٦).



## المبحث الثاني : منطلقات الحوار الديني

للدخول في حوار ديني، لا بد للمحاور أن يعرف من أين ينطلق وإلى أين ينتهي، فلا بد له من معرفة التاريخ الديني لكل طرف من الأطراف، وطبيعة المرجع الذي يستمد منه هذا الطرف أو ذاك إقتناعاته وتصوراته وحججه وأدلته. ومن خلال ما تجلى لنا من تجليات لمفهومي التصديق والهيمنة، فإن المسؤولية الكبرى تقع على المنتمي للمرجعية الخاتمة المستوعبة للمرجعيات الأخرى والمصدقة والمهيمنة عليها. فهو المأمور بالمبادرة إلى الدعوة إلى الحوار وبيان ما اشترك من الأصول، وكذا بيان ما هو أصيل وما هو دخيل فيما ينسب إلى الله ورسله. وعليه فإن هذه أهم المنطلقات التي ينبغي للمحاور أن ينطلق منها، ويجتهد وسعه في قيادة الطرف الآخر أو الأطراف الأخرى إلى الاعتراف بها.

(١) وحدة المصدر:

لم يأت أي رسول من الرسل عبر خط الرسائل جميعا بشيء من عنده، بل كل ما جاءوا به مصدره وحي الله الواحد الأحد. فنوح عليه السلام مرسل من ربه ورسالة التوحيد التي أمر بتبليغها وحي من الله عز وجل، وصحف إبراهيم وحي من الله عز وجل، وتوراة موسى عليه السلام وحي من الله سبحانه، وزابور داوود عليه السلام وحي من الله تعالى، وإنجيل عيسى عليه السلام وحي من الله عز وجل، كما أن كتاب الختم القرآن الكريم وحي من الله عز وجل. فلا صلة لهذه الكتب السماوية جميعا بالسحر ولا بالشعر ولا بالجن ولا بالإنس بل هي جميعا وحي من عند الله عز وجل وأوحى به إلى رسله المصطفين هدى ونورا لعباده المومنين.

وأغلب الآيات التي ورد فيها ذكر التصديق جاءت في سياق الدعوة إلى الإيمان بالكتاب الخاتم من حيث كونه مصدقا لما قبله في المصدر،

فالكل منزل من عند الله عز وجل ووحى منه سبحانه، ومصداق لما قبله في الجوهر من حيث أمر التوحيد وأضرب العبادة ومناحي السلوك.

## ٢) وحدة الأمة (أمة الأنبياء):

يشكل الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام من خلال اصطفائهم من لدن الله عز وجل وتكليفهم بالرسالة التوحيدية أمة واحدة مصداقا لقوله عز وجل: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٩٢)، فهم في توحدتهم وتكاملهم وتصديق بعضهم لبعض، ووحدة مهمتهم، ووحدة البناء الذي اشتركوا جميعا في تشييده رغم اختلاف أزمته وأمكنتهم وألوانهم وأسننتهم وأقوامهم وشعوبهم، يشكلون أبقى وأرقى صورة للأمة الواحدة المتحدة، «تتلاشى آماد الزمان، وأبعاد المكان، وتغاير الأقوام، واختلاف اللغات أمام وحدة الحقيقة التي جاء بها الرسل، ووحدة الطبيعة التي تميزهم كأنبياء، ووحدة الخالق الذي بعثهم وأرسلهم، ووحدة الذي يدعون إليه الخلائق... إنهم موكب واحد يتراءى على طريق التاريخ البشري الموصول، ورسالة واحدة بهدي واحد للإنذار والتبشير، موكب واحد يضم هذه الصفوة المختارة من البشر: نوح وإبراهيم وإسماعيل... ومحمد ﷺ، موكب من الأنبياء لشتى الأقوام... وكلهم تلقى الوحي من الله الواحد الأحد»<sup>(١)</sup>.

## ٣) وحدة الدين:

كان الناموس الذي حمله موكب الأنبياء والرسل عليهم السلام جميعا هو الناموس الذي خضع له ما في السماوات وما في الأرض، خضع له الكون كله وأسلم لله رب العالمين. ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي

١- الدكتور رؤوف شلبي، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَمَتَّقُوا إِلَى كَلِمَةِ سَلَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ، شَيْئًا وَلَا نَتَّخِذَ بَعْضًا بَعْضًا آيَاتًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤) دراسة مقارنة للمسيحية، مكتبة الأزهر ط١، ج١ ص١٨-١٩.

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿ (آل عمران: ٨٣) ،  
والإنسان مفردة في تركيب هذا الكون لا بد وأن تكون حركته منسجمة معه ،  
وقد ربط الله عز وجل بين استجابة الإنسان وبين استجابة الكون في موضع  
عجيب من القرآن المجيد وهو قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا  
وَالضَّالِّينَ وَالنَّصْرَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ، مَنْ فِي السَّمَوَاتِ  
وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدُّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ  
النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ، مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا  
يَشَاءُ ﴿ (الحج: ١٧ - ١٨) ، ولذلك أرسل الله رسلا جميعا بهذا الناموس ،  
فكانت بدايته مع آدم ﷺ ، وكماله مع خاتم الكتب الإلهية وخاتم النبيين  
محمد ﷺ ، وكان الاسم الجامع لهذا الدين الذي جاءت به الرسالات عبر  
تتابعها هو الإسلام ، دين واحد في جوهره لا اختلاف فيه ، مصداقا لقوله  
تعالى ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا  
مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْثًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِنَائِدِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ  
الْحِسَابِ ﴿١١﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَمْتُ لِرَبِّي وَاللَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَنِي فَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ  
وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلَّمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَّمُوا فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ  
بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿ (آل عمران: ١٩ - ٢٠) ، فالرسول الخاتم ﷺ لم يأت بدين  
جديد اسمه «الإسلام» وإنما جاء مكتملا لهذا الدين الذي دان به الأنبياء  
جميعا عليهم الصلاة والسلام وأسلموا لله رب العالمين. والقارئ للقرآن  
الكريم يجد أن الأنبياء السابقين وصفوا جميعا بأنهم مسلمون، ويجد إقرار  
كل من نوح وإبراهيم ولوط ويعقوب والأسباط وموسى وهارون وعيسى  
وأنصاره بأنهم مسلمون، فالله عز وجل سماهم المسلمين كما سمي من  
جاء بعدهم، من قبل مجيء القرآن الكريم وفيه ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ  
مِن قَبْلُ ﴾ (الحج: ٧٨) ، وبعده إلى أن يموتوا، وبهذا كانت وصية يعقوب

ﷺ إلى بنيه ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾  
 (البقرة: ١٣٢)، والتزمها سيدنا يوسف ﷺ فأعلنها في دعائه إلى الله  
 ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
 أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِيقِي بِالصَّلِحِينَ﴾ (يوسف:  
 ١٠١)، وكان سيدنا سليمان ﷺ والملا من حوله مسلمين ﴿وَأَوْثِنَا الْعِلْمَ مِنْ  
 قَلْبِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ (النمل: ٤٢)، وأعلنت بلقيس إسلامها مع سليمان ﴿قَالَتْ  
 رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل: ٤٤)،  
 وبها خاطب موسى ﷺ قومه ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يُقَوْمُ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا  
 إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٨٤)، ولما غرق فرعون اعترف بحقيقة الدين  
 الذي دعاه إليه موسى ﷺ ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ  
 إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٩٠)، وأعلنها سحرة  
 فرعون لما تبين لهم الحق ﴿وَمَا نُنْقِمُ مَنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا  
 رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٦)، وأنبياء بني إسرائيل  
 كلهم أسلموا لله ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ  
 الَّذِينَ آسَلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَضُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ  
 وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ (المائدة: ٤٤)، كما أعلنها حواريو عيسى ﷺ  
 وأنصاره وأشهدوا الله على إسلامهم ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ ءَامِنُوا  
 بِى وَرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ﴾ (المائدة: ١١١)، كما أشهدوا  
 عيسى ﷺ أيضا على إسلامهم ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ  
 أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِجُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّنا  
 مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٥٢). وشهد الله وملائكته وأولوا العلم بأن  
 الدين عند الله الإسلام ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ  
 قَابِلًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ١٨). وفي أعقاب

الميثاق الخالد الذي أخذه الله من أنبيائه يعلن سبحانه أنه لا يرضى لعباده دينا غير الإسلام ولن يقبل منهم دونه بل حكم بالخسران في الآخرة لمن ابتغى غير الإسلام دينا ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (آل عمران: ٨٥).

وإيضاحاً لجوهر معنى الإسلام وتصديق كتاب الختم وهيمنته قال عز من قائل: ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٣٥) قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٣٦) فَإِنَّ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ (البقرة: ١٣٥ - ١٣٧)، كما بين سبحانه في موقع آخر بأن الذين أسلموا بهذا المعنى الصافي للإسلام هم المهتدون وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ حَاجَبَكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعِنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (آل عمران: ٢٠)، فالله عز وجل لم يأمر عباده، سواء الذين آتاهم الكتاب من قبل أو الذين لم يؤتوه (الأميين)، بأن يكونوا هودا أو نصارى وإنما أمرهم بأن يكونوا مسلمين ملة إبراهيم حنيفا ولا يكونوا من المشركين ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ (البينة: ٥)، وهؤلاء هم أحسن دينا ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ (النساء: ١٢٥).

وغالبا ما يستشهد دعاة وحدة الأديان<sup>(١)</sup> بالآية التالية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰلِحِينَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٦٢)، فهذه الآية لا تتحدث عن الأديان، بقدر ما تتحدث عن أصناف وطوائف من الناس من أتباع الرسالات، وأن الجامع بين هؤلاء هو الإيمان بالله وباليوم الآخر وعمل الصالحات، وهو جوهر الدين، وهو الكلمة السواء التي تجمع بين هؤلاء جميعا، وأما إن حادت هذه الطوائف عن هذا الجوهر فيبقى الرابط بينها الوحدة الإنسانية والله يفصل بينهم يوم القيامة. وفي سورة البينة نجد البيان الفصل لهذا الذي أشرنا إليه ﴿لَا يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۗ﴾ (١) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءً وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمُ حِبَرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ حَسِبَ رَبَّهُ﴾ (البينة: ١ - ٨). وهذا هو مضمون الكلمة السواء التي أمرنا بدعوة أهل الكتاب إليها.

١- ظهرت هذه الدعوة تحت عدة شعارات مختلفة بغاية واحدة، منها: «وحدة الأديان»، «توحيد الأديان»، «توحيد الأديان الثلاثة»، «الإبراهيمية»، «الملة الإبراهيمية»، «الوحدة الإبراهيمية»، «وحدة الدين الإلهي»، «المؤمنون»، «المؤمنون متحدون»، «الناس متحدون»، «الديانة العالمية»، «التعايش بين الأديان»، «العالمية وتوحيد الأديان»... ثم لحقتها شعار آخر، هو: «وحدة الكتب السماوية»، ثم امتد أثر هذا الشعار إلى فكرة طبع: «القرآن الكريم، والتوراة، والإنجيل» في غلاف واحد. ثم امتدت الدعوة إلى الحياة التبعية العملية؛ إذ جاءت دعوات إلى إقامة مكان مشترك للعبادة (مسجد+كنيسة+معبد) يضم المسلمين والمسيحيين واليهود، ولم يقف الأمر عند هذا، بل تعالت دعوات بإقامة صلاة مشتركة من ممثلي الأديان الثلاثة الخ..

#### ٤) الكلمة السواء التوحيدية:

نجد هذا في أمر الله عز وجل لنبيه ﷺ بدعوة أهل الكتاب إلى كلمة سواء بيننا وبينهم، ومدار هذه الكلمة السواء على التوحيد ورفض الشرك والاستعباد، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّاهِلَ الْكٰتِبِ تَعَالَوْا اِلٰى كَلِمَةٍ سَوٰىمٍ بَيْنِنَا وَبَيْنَكُمْ اِلَّا نَعْبُدُ اِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا اَرْبَابًا مِّنْ دُوْنِ اللهَ فَاِنْ تَوَلَّوْا فَقُوْلُوْا اَشْهَدُوْا بِاَنَّا مُسْلِمُوْنَ ﴿ (آل عمران: ٦٤)، فهذه الكلمة السواء تتبني على أمور ثلاثة: أولها: توحيد العبادة لله، وثانيها: عدم الشرك بالله، وثالثها: عدم اتخاذ أرباب من دون الله، فبالنسبة للأمر الأول والثاني فقد رأينا في الباب الأول أن جميع الرسل والرسالات جاءت بالأمر بعبادة الله وحده وترك الشرك به، وسقنا على ذلك مجموعة من الشواهد. أما فيما يخص الأمر الثالث، فنجد أن الله عز وجل ذم اليهود باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله وما من رب سواه ﴿ اَتَّخِذُوْا اَحْبَارَهُمْ وَرُهْبٰنَهُمْ اَرْبَابًا مِّنْ دُوْنِ اللهَ ﴿ (التوبة: ٣١)، وهو الأمر الذي كان استكرهه يوسف عليه السلام في ملة المصريين القدامى فقال: ﴿يَصْنَعِي السِّجْنِ ءَاَرْبَابٌ مُّفْرَقُوْنَ خَيْرٌ اَمِ اللهَ الْوٰحِدُ الْقَهَّارُ ﴿ (يوسف: ٣٩)، وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِشَرِّ اَنْ يُؤْتِيَهُ اللهَ الْكِتٰبَ وَالْحِكْمَ وَالنُّجُوْمَ ثُمَّ يَقُوْلَ لِلنَّاسِ كُوْنُوْا عِبَادًا لِّيْ مِنْ دُوْنِ اللهَ وَلٰكِنْ كُوْنُوْا رَبّٰنِيْنَ يٰمٰا كُنْتُمْ تُعَلِّمُوْنَ الْكِتٰبَ وَيٰمٰا كُنْتُمْ تَدْرُسُوْنَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يٰمُرْكُمْ اَنْ تَنْخِذُوْا الْمَلٰٓئِكَةَ وَالنَّبِيْنَ اَرْبَابًا اَيٰمُرْكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ اِذْ اَنْتُمْ مُّسْلِمُوْنَ ﴿ (آل عمران: ٧٩ - ٨٠)، فهو رب العباد ولا رب سواه، ولا يرضى سبحانه لعباده الكفر، كما لا يرضى لهم أن يكونوا عبادا لغيره تعالى.

فمدار الكلمة السواء، إذن، على توحيد الله وإفراجه بالعبادة وترك الشرك به بكل أنواعه، وهذا هو جوهر الدين القيم الذي أمرنا جميعا بأن ندين به لله إسلاما وانقيادا، وهو ما أجملته الآية الخامسة من سورة البينة

التي ذكرناها غير ما مرة ﴿ وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنْفَاءً ﴾  
 (البينة: ٥).

(٥) ضرورة التمييز بين أهل الكتاب:

فهم ليسوا سواء منهم الصالحون ومنهم دون ذلك، ومنهم المؤمنون  
 ومنهم الكافرون، وكثير من الآيات تقرر هذا، نذكر منها قوله  
 تعالى: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ إِنَّآ أَنزَلْنَا لِّلَّيْلِ  
 وَهُمْ يَسْتَحْجِدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ  
 وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾  
 (آل عمران: ١١٣ - ١١٤)، وقوله سبحانه: ﴿ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ  
 سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة: ٦٦)، وقوله سبحانه عن موقفهم من الحق:  
 ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ  
 أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيكَ ذَلِكَ يَأَنَّ مِنْهُمْ  
 قَتِيلِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى  
 الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا  
 فَكُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن  
 يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَاتَّبَعَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا  
 الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا  
 بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (المائدة: ٨٢ - ٨٦)، وفي السياق نفسه يقول  
 تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ  
 إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ  
 عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (آل عمران: ١٩٩).

وقوله سبحانه عن أمانة أهل الكتاب: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ  
 يُودِعَهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ  
 بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتَيْنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ



﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٥ - ٧٦﴾ (آل عمران: ٧٥ - ٧٦).

هذه، إجمالاً، أهم المنطلقات لحوار ديني راشد وبناء، تبني على ما اشترك من أصول الدين في الرسائل السماوية كما صدق وهيمن عليها القرآن الكريم.

وهذه الأصول تشكل قاعدة دينية مشتركة للإنسانية جمعاء، ومن أجل حوار ديني هادئ وجب الانطلاق منها والبناء عليها.

## المبحث الثالث: واقع الحوار الديني وأفاقه

### (١) الواقع:

تنوعت صور الحوار الديني وتعددت على مر تاريخ الرسالات جميعاً، لكنه برز أكثر وأصبح مثيراً للجدل مع مجيء الرسالة الخاتمة، وموقف الذين أوتوا الكتاب من قبل من هذه الرسالة، فكان الرسول ﷺ القدوة في هذه القضية وكان حوارهِ ﷺ النموذج المشرف الذي يجب أن يقتدى، لأنه كان يعمل على عين الله وبأمر وتوجيه منه سبحانه، فهناك حواراته مع أهل الكتاب من اليهود الذين كانوا يعيشون معه في المدينة، وحواراته مع أهل الكتاب من النصارى عبر الرسائل التي كان يكتبها إليهم ﷺ، ثم الحوارات التي كان يجريها الصحابة رضي الله عنهم بتوجيه منه ﷺ أثناء الجهاد وفتح البلدان، وتبعه في ذلك التابعون وأتباع التابعين، واستمر الحوار إلى يومنا هذا وإن كانت صور الحوار وأهدافه وغاياته تختلف عن السابق، فقد تخلف المسلمون عن دورهم في الحوار ولم تعد لهم مبادرة تذكر إلا ما كان من حوارات فردية مستقلة أو أكاديمية صرفة.

ومن خلال تتبع قضية الحوار الديني في الواقع اليوم -مطلع القرن الحادي والعشرين-، نلاحظ حضور الحوار «الإسلامي المسيحي» وتناميه بصفة خاصة في المحافل الحوارية أو على المستوى الأكاديمي، ولعل هذا مرجعه إلى التقارب الموجود بين المسلمين والمسيحيين عبر التاريخ والذي وطده فهم المسلمين لقول الله عز وجل ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرْنَاكَ ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرُحْبَانًا وَأَنْتُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (المائدة: ٨٢) وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ (العنكبوت: ٤٦)، والاستثناء في قوله تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ لا يخص اليهود وحدهم بل يشمل كل

الذين ظلّموا من أهل الكتاب سواء كانوا يهودا أو نصارى كما رأينا من قبل بأن أهل الكتاب ليسوا سواء منهم المؤمنون ومنهم الفاسقون، منهم القاسطون والظالمون. وفي هذا الصدد يقول محمد حسين فضل الله: «إذن الموقف السلبي من اليهود لا ينطلق من يهوديتهم وانتمائهم للتوراة، بل من خلال عدوانيتهم وتمردهم على الخط التوحيدي والقيم الروحية التي نادى بها التوراة وجاء بها النبي موسى ﷺ، وعلى هذا الأساس حاربوا الإسلام منذ انطلاقاته، وتحالفوا ضد نبي الإسلام مع المشركين الذين يختلفون معهم في خط العقيدة»<sup>(١)</sup>، وبخصوص الاستثناء الذي ذكرنا من قبل يقول: «فإن الله تعالى في هذه الآية يستثني الظالمين من حركة الحوار، الذين لا يمكن أن يتحدث الإنسان معهم باللغة الأحسن، لأنهم لا يفهمونها ولا يريدون الانطلاق من مواقعها...»<sup>(٢)</sup>.

كما أن هناك أمرا ثانيا يساعده على وجود الحوار بين المسلمين والمسيحيين على وجه الخصوص، وهو جملة المبادرات التي سجلها التاريخ لطرف أو ذلك، وبهذا الصدد يقول أحد بيانات الكنيسة: «ويجب أن يتوضح للمسلمين أن المسيحي عندما يقوم بالحوار، إنما يقوم به لشعوره بالواجب تجاه دينه، وتجاه الناس، حتى يعلموا أن المسيحي يحاور المسلم ليحولهم إلى أصدقاء له، وليبين لهم أنه يؤمن بالتوحيد الحقيقي، وهذا كله يتطلب من المسيحي أن يوضح عقيدته عن رفعة وعظمة الله تعالى»<sup>(٣)</sup>، وقد أصدرت الكنيسة في هذا الشأن عدة بيانات وتوجيهات للحوار بين المسلمين والمسيحيين نذكر منها أهم بيان يجسد تطور موقف الكنيسة

١- في أفاق الحوار الإسلامي المسيحي، ص ٢٢.

٢- نفسه.

٣- الحوار الإسلامي المسيحي، المبادئ التاريخية الموضوعات الأهداف، تأليف بسام داود عجك. دار قتيبة، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص ٢٨٠.

من المسلمين، وهو البيان الصادر عن المجمع الفاتيكاني سنة ١٩٦٥ والمعروف بـ *Nostra Aetate* ومما جاء فيه: «وتنظر الكنيسة بعين الاعتبار إلى المسلمين الذين يعبدون الله الأحد، الحي القيوم، الرحمن القدير، فاطر السموات والأرض، والذي خاطب البشر، والذين يجتهدون في أن يخضعوا من صميم الفؤاد لأحكام الله، حتى ولو كانت خفية (أي: العقائد الغيبية)، كما خضع له إبراهيم، الذي يشير إليه الإيمان الإسلامي بطيب خاطر. وهم إن كانوا لا يعترفون بالمسيح كإله، إلا أنهم يجلونه كنبى، ويكرمون والدته العذراء مريم، بل وأحياناً يذكرونها بكل تقوى، وعلاوة على ذلك فإنهم يترقبون يوم الدينونة، حيث يجازي الله جميع الناس، الذين يقومون من بين الأموات، وهذا ما يجعلهم يقدرون الحياة الأبدية، ويعبدون الله، خاصة بالصلاة، والزكاة، والصيام.

وإن كانت قد نشبت منازعات وعداءات غير قليلة بين المسيحيين والمسلمين، على مدى الأجيال، فإن المجمع المقدس يهيب بالجميع أن ينسوا الماضي، ويعملوا بإخلاص على إحلال التفاهم المتبادل بينهم، ويتعاونوا على حماية العدالة الاجتماعية، والقيم الأدبية والحرية للناس أجمعين»<sup>(١)</sup>.

وعلى إثر هذا البيان، انشئت لجنة خاصة باسم «أمانة سر اللجنة الدائمة للعلاقات مع المسلمين، وقد صدرت عن هذه اللجنة عدة بيانات توضح أسس تلك العلاقة وشروط الحوار مع المسلمين:

- البيان ١ بعنوان: نحو حوار مع المسلمين صدر سنة ١٩٦٦، ويتضمن الدعوة إلى طي صفحة الماضي وتغيير سوء التفاهم، وتبديل الأفكار الزائفة المتبادلة بين الطرفين وإلى بيان المفاهيم الإيمانية والقيم والأخلاق المشتركة.

١- الحوار الإسلامي المسيحي، ص ٢٧٩.

- البيان ٢ بعنوان: ما هو الموقف الديني الذي يجب أن يتبناه المسيحيون في الحوار مع المسلمين؟ (١٩٦٩)، ويتضمن:

أ- الدعوة إلى الاعتراف بالآخر كما هو على حقيقة دينه.

ب- الدعوة إلى عدم التخلي عن الإيمان المسيحي الخالص أثناء الحوار، وأن لا يتنازل المسيحي عن شيء من معتقداته حتى ولو كان الهدف هو الوقوف مع المسلمين على مستوى واحد في العقيدة والإيمان.

ج- دعوة المسيحيين إلى تجديد معرفتهم بدينهم.

د- الدعوة إلى الاعتراف بأن الإسلام دين تمسك بالقيم الدينية، والتي هي أرفع القيم في العالم، مثل عبادة الله، والشكر له، والخضوع لإرادته.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن نص البيان الذي صدر عن المجمع الفاتيكاني المسكوني الثاني، قد جاء فيه ما يلي: «الكنيسة لا ترفض الشيء الصحيح والمقدس في بقية الأديان، وتتنظر بإخلاص واحترام للقواعد الحياتية لأصحاب تلك الديانات، ورغم اختلاف تلك القواعد عما تعتقده الكنيسة، فإن تلك القواعد غالباً ما تعكس نور الحقيقة التي يعيشها أولئك الناس.

- البيان ٣ بعنوان: إرشادات وتوجيهات من أجل حوار بين المسلمين والمسيحيين (١٩٧٥)، وهو عبارة عن كتاب صدر عن الفاتيكان يهدف إلى التعريف بالإسلام وتعليم المسيحي كيف يعامل المسلم، وكيف يفهم دينه، وقد ضم هذا الكتاب ستة فصول عناوينها كالتالي: ١- موقف المسيحيين من الحوار، ٢- معرفة قيم الإسلام، ٣- كيف نتحدث عن القرآن الكريم؟ ٤- رسالة الأنبياء، ٥- كيف نهى أنفسنا للحوار؟، ٦- الاعتراف بمظاهر الماضي. وخلص الكتاب إلى التأكيد على أن الاعتراف بالإسلام لا يكون حقيقة ما لم يتم اعتباره عقيدة دينية قبل كل شيء، ولا يمكن أن يلتقي

المسيحيون المسلمين ما لم يكتشفوا فيهم القيم الروحية التي تنظم حياتهم. فإذا قبل المسيحيون أن يمارسوا الحوار من خلال هذه الرؤية، فلا يكون المسلم الذي يلتقونه في تصورهم. ذلك الخصم، ولا ذلك المنافس لمشاريعهم، وإنما يكون رجل العقيدة والإيمان، الذي يمثل لمشيئة الله حتى الرمق الأخير، وعندئذ يكونوا قد اكتشفوا أخوا في هذا المؤمن، وهذا كله سوف يغير كلياً نظرتهم إلى العالم الإسلامي، ويفتح أخيراً أبواب الحوار الحقيقي.

- البيان ٤ بعنوان: خطوط عامة لحوار إسلامي مسيحي مخلص (١٩٧٨)، وركز هذا البيان على ضرورة إخلاص كل طرف لدينه أثناء عملية الحوار، ولا يحق لطرف أن يجبر الطرف الآخر على اعتناق دينه، وكذا ضرورة تحديد مواطن الخلاف ومعالجتها، وإعطاء كل طرف صورة صحيحة لدينه، والقدرة على تلقي النقد من الآخرين. وخلص إلى ضرورة التآخي بين الأطراف المتحاورين لمواجهة تحديات الإيمان في العصر الحديث، وضرورة إشراك الجميع في الحوار دون الافتقار على الإسلام والمسيحية فقط<sup>(١)</sup>.

وهذه بعض معالم واقع الحوار الديني في المحافل الحوارية.

#### أ. «المحافل التوظيفية»:

في هذا النوع من المحافل يوظف الحوار من أجل الإبقاء على أمور معينة، أو من أجل الوصول إلى أغراض محددة.. كما يغلب على المقولات والأفكار التي تروج في هذه المحافل كونها صدى لما يحمله المنظمون من إقتاعات، إذ يتم البحث في دائرة «الآخر» ممن سوف يتكلم بما في أذهان المنظمين، وعمما يشتهون وليس ممن يحمل أفكارا وإقتاعات «أخرى»!

١ - الحوار الإسلامي المسيحي، ص ٢٨٠-٢٩٢ بتصرف.

وتتدرج ضمن هذا المنحى التوظيفي جلّ الدراسات التي أنجزت خدمةً للمنظور الاستعماري، أو خدمةً لأغراض ومناافع تجارية واقتصادية صرفة. وهو ما قامت به الدول عبر التاريخ مروراً بالفرانكو ووصولاً إلى يومنا هذا؛ حيث تدرس المعتقدات والإقتاعات ضمن هذه المقاربة التوظيفية بغرض التسلسل إلى المعمار الذهني للآخر بغية تأطيره والتحكم فيه.. ومن هنا فإن المحافل التي تنحو هذا المنحى توظيفية بامتياز.

### ب. المحافل الدعوية التبشيرية:

هذا المنحى لا تكاد تبرأ منه ملة من الملل؛ ويمكن أن نجده في المسيحية كما يمكن أن نجده في الإسلام، أو في الهندوسية أو البوذية وفي كل الملل ذات النزوع التبشيري، ومن ثم فإن الحوار في هذه المحافل لا يكون تعاريفياً استكشافياً بقدر ما يكون مستهدفاً ضم الآخر بل أحياناً هضمه، وهذا ما جاء في خطاب الكنيسة البروتستانتية الإنجيلية الغربية من خلال وثائق مؤتمر كولورادو سنة ١٩٧٨م: «نحن بحاجة إلى مئات المراكز تؤسس حول العالم، بواسطة النصارى للتركيز على الإسلام، ليس فقط لخلق فهم أفضل للإسلام، وللتعامل النصراني مع الإسلام، وإنما لتوصيل ذلك الفهم إلى المنصرين من أجل اختراق الإسلام في صدق ودهاء!!»<sup>(١)</sup>.

### ج. المحافل التوظيفية المستهدفة لتحقيق التعايش:

هذا النمط الثالث من المحافل الحوارية يسعى إلى البحث عن نقاط الالتقاء والقواعد المشتركة مع «الآخر» من أجل وضع حد للصراعات العدمية؛ فهو بهذا يمارس التوظيف، لكن بطريقة إيجابية تروم حقن الدماء، وصيانة الأرواح، واستبقاء المصالح وعيا بضرورة الإبقاء على التوازنات بشكل

١- مازق المسيحية والعلمانية في أوروبا (شهادة ألمانية) للقس الألماني الدكتور/ جوتفرايد كونزلن، تقديم وتعليق د. محمد عمارة. في التنوير الإسلامي ٤٤، دار نهضة مصر، ط ١٩٩٩، ص ١٠.

أو بأخر دون الغوص في معرفة الآخر ومحاولة فهمه فهما عميقا صادقا وصحيحا وإفادته والاستفادة مما عنده. ومن الموضوعات التي يتم التداول فيها في مثل هذه المحافل، موضوعات تشمل شؤون الإنسان وإصلاح حال المجتمعات البشرية وعلاج ما يتعلق بصراع الحضارات، والسلم العالمي، إلى جانب مخاطر البيئة، وقضايا الأسرة، والأخلاق في المشترك الإنساني. وعادة ما يتم الخروج ببيان ختامي يدعو إلى:

١. رفض التمييز العنصري والاستعلاء العرقي فالناس متساوون في الكرامة الإنسانية.

٢. التنوع بين البشر يجب أن يكون مدعاة إلى التفاهم والتعاون.

٣. مواجهة التحديات الاجتماعية من طغيان الحياة المادية وتفكيك الأسرة وانحلال القيم الأخلاقية مما يستوجب التعاون الوثيق وتبادل التجارب والخبرات.

٤. ليست الأديان مصدرا للأزمات ولا تدخل ضمن صراع المصالح.

٥. الدعوة إلى تطبيق المواثيق الدولية وبخاصة قرارات ومبادئ الأمم المتحدة المنصوص عليها في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

٦. الدعوة إلى إنشاء مركز عالمي للحوار.

٧. التأكيد على أهمية الإعلام ودوره في نشر ثقافة الحوار وتعزيز أهدافه ومؤسسته مع ضرورة تحلي الوسائل الإعلامية بالموضوعية والمصداقية.

٨. الابتعاد عن الترويج لثقافة العنف وعرض الأعمال الفنية المشتركة والعمل على إيجاد بدائل تعزز القيم الدينية التي تحقق التعايش السلمي وترسخ ثقافة الحوار.



٩. الامتناع عن حملات التهجم على الأديان ورمزها.

١٠. ضرورة تضمين المواثيق والمقررات الدولية إلى نصوص تمنع نشر الكراهية والتمييز العنصري ودعم مكافحة الفقر والجهل والمرض والكوارث الكونية.

١١. دعم جمعيات ومؤسسات حقوق الإنسان التي تعمل على ترسيخ القيم الإنسانية في المجتمعات البشرية.

١٢. إشراك النساء والشباب في برامج الحوار في المستقبل.

وعن هذه الحوارات يقول داعية العصر أحمد ديدات: «وبالنسبة لي، فمثل هذا الحوار إضاعة للوقت، لأنه مجرد أحاديث منمقة، وكلمات متملقة، ومظاهر مهذبة، يلتقي المتحاورون ويتبادلون كلمات رنانة، ثم لا يتفقون على شيء»<sup>(١)</sup>.

فهذه الحوارات بعدم مناقشتها للعقائد والموضوعات الدينية، واهتمامها بالمشترك الإنساني وحاجات البشرية الماسة، تكون قد خرجت عن دائرة الحوار الديني إلى دائرة الحوار التعاريفي وليس الأمان سيان، فيجب أن تسمى الأشياء بمسمياتها، وإن كانت هذه القضايا من صميم الدين باعتباره شامل لجميع مناحي الحياة، لكن مفهوم الحوار الديني يعني التحاور حول قضايا الاعتقاد والإيمان، حتى إذا عُدم وكان دون جدوى آنذاك ينتقل إلى التفاهم والاتفاق والتعاون فيما هو مشترك إنساني، أو على الأقل، قد يقبل بهذا الحوار مقدمة للحوار الديني بإعتبار أن المشترك الإنساني هو الأصل.

١- حوار ساخن مع داعية العصر أحمد ديدات، محمد عبد القادر الفقي، مكتبة القرآن، القاهرة، ص ٢٢.

## ت- المحافل الأكاديمية:

هذا الضرب الأخير من المحافل يمكن أن نصلح على تسميته بـ «الأكاديمي»، حيث يعنى فيه الباحث بمعرفة الأمور والوقائع والمعطيات كما هي، يكشف عنها ويتركها بحياد متاحة للتوظيف من طرف أي من المحافل الأخرى، وهو محفل له إيجابياته ويحتل المنزلة بين المنزلتين؛ التوظيفية والتعارفية..

وهذا له أهميته في معرفة الحقائق الدينية، لأن الجهل بها يؤدي إلى سوء الفهم والتعصب والتطرف وإلى تبادل الاتهامات، وهذا ما حدث بالفعل على مر العصور ويحدث في يومنا هذا، فقد صُوّر الإسلام في الغرب في القرن السادس عشر بأنه دين متعصب وشريير، وخلال عصر التنوير في القرن الثامن عشر كديانة غريبة بل سخيفة، وفي العصر الحديث كدين يجب الخوف والحذر منه أو بصيغة أخرى هو دين إرهاب. والأمر نفسه في تصورات المسلمين عن المسيحية وغيرها.

ويتزعم رواد هذا الاتجاه الباحث الروماني ميرسي إلياد في دراساته المتخصصة، وكتابه تاريخ الأفكار والمعتقدات الدينية شاهد له بهذا، بالإضافة إلى كتابه «المقدس والمدنس».

الملاحظ لواقع الحوار الديني لا يرى فيه أي أثر للمرجعية الخاتمة المصدقة والمهيمنة، وبديهي أن يكون الأمر هكذا، لأن المبادرة للحوار في الواقع تأتي من عند من لا يؤمن بهذه المرجعية ولا بهيمنتها بل ينكر حتى أنها من عند الله عز وجل، كما أن موقف المشاركين في الحوار والمنتمين للمرجعية الخاتمة هو موقف خجول ينتمي إلى قوة الطرح والجرأة.

## - عقبات وعراقيل الحوار الديني:

من أهم العوائق التي كانت وما تزال تشكل حجرة عثرة في طريق الحوار بين المسلمين وبين ممثلي الكنائس النصرانية وحاخامات اليهود وغيرهم، هو مشكل الاعتراف المتبادل.

وقضية الاعتراف كما هو معلوم شرط أساسي في الحوار، فالله عز وجل وهو يأمر نبيه بدعوة اليهود والنصارى يفتح الخطاب بـ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ اعترافاً منذ البداية بأن هؤلاء قوم لهم كتاب ولهم رسالة، وأرسل فيهم رسل وأنبياء، إنها مبادرة إلى الاعتراف كما يتجلى في قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٦)، مبادرة من الطبيعي أن تلقى قبولاً لدى الطرف الآخر ويستجيب بالمثل ﴿فَإِن آَمَنُوا بِمِثْلِ مَا آَمَنَ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن لُّوْا فَاِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٣٧).

فهكذا كانت مواقف أهل الكتاب متباينة من الرسالة الخاتمة، قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنَاءَ أَيِّ لَيْلٍ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران: ١١٣ - ١١٤). وفي هذا الصدد يقول الدكتور محمد عمارة: «هذا هو الموقف الإسلامي، الذي يعترف بالآخر الديني، ويؤمن بكل النبوات والرسالات السابقة ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ...﴾ (البقرة: ٢٨٥)، و«الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد»<sup>(١)</sup>.. والمسلم يرى إسلامه الامتداد المكمل لدين الله الواحد، والميراث الجامع

١- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، حديث رقم: ٢٢١٢.

لكل الشرائع والرسالات.. ومع ذلك، فلقد أقر كل صاحب دين على دينه،  
معتبراً التعددية في الشرائع والاختلاف في الملل سنة من سنن الله التي  
لا تبدل لها ولا تحوّل.. وحساب المخالفين إنما هو لله، سبحانه وتعالى،  
يوم الدين.. ولا ينقص هذا الاختلاف أحداً من أطرافه حظاً من حظوظه  
في هذه الحياة الدنيا..»<sup>(١)</sup>.

ونجد عدم الاعتراف اليوم ما زال حاضراً في بيانات الكنيسة الداعية  
إلى الحوار مع المسلمين، ففي هذه البيانات نجد الحديث عن المسلمين  
باعتبارهم موحدين، كما نجد دعوة صريحة إلى عدم الاعتراف بأن القرآن  
كلام الله عز وجل، فالقرآن عند كل مسلم «هو كلام الله تعالى، ويحظى  
باحترام كبير عند المسلمين، والمسلم يتألم بشدة عندما يسمع أحداً من  
الغرب يقول: هكذا قال محمد في القرآن. لأن القرآن في العقيدة الإسلامية  
هو من عند الله تعالى، وليس من عند محمد، وكما قال ماسينيون: إنه  
إملاء فوق الطبيعة. والمسلم عندما يقرأ آية قرآنية يمهد لها بقوله: قال  
الله تعالى. وطبيعي ألا ينتظر من المحاور المسيحي أن يقول مثل ذلك، ولكننا  
ننصح بقول المحاور المسيحي: قال القرآن أو ما شابه ذلك»<sup>(٢)</sup>. وهناك  
من المسيحيين من يتصور الإسلام ويعتبره صورة مشوهة للمسيحية،  
كما يعتبرون المسلمين خصوماً للسيد المسيح وسارقي رسالته ومزوري  
هويته، «إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تناقض مصادره الأصلية أسس  
النصرانية.. إنه حركة دينية معادية للنصرانية، مخططة تخطيطاً يفوق  
قدرة البشر»<sup>(٣)</sup>. الخلاصة أن هذه الدعوات التي ظاهرها الاعتراف،  
فإن باطنها لا ينطوي على اعتراف حقيقي. لكن وجب على المسلمين أن  
لا يبقوا مكتوفي الأيدي في انتظار أن يجود عليهم الغير بالاعتراف، فالله

١- مآزق المسيحية والعلمانية في أوروبا، مرجع سابق، ص ٧.

٢- الحوار الإسلامي المسيحي، مرجع سابق ص ٢٨٧.

٣- مآزق المسيحية والعلمانية في أوروبا، مرجع سابق، ص ١٠.

عز وجل في كتابه العزيز يرشدنا إلى الأفق المفتوح الذي لا حد له إذا جوبه المسلمون بالإنكار والإعراض، فيقول عز من قائل: ﴿ وَلَيْنَ آتَيْنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبَلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبَلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبَلَةَ بَعْضٍ وَلَئِن آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وُجْهٍ هُوَ مَوْلِيًّا فَاسْتَبِقُوا الْحَيَاتِ آيِنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾ (البقرة: ١٤٥ - ١٤٨).

## ٢) آفاق الحوار الديني المنشود:

يصعب التكهن بمستقبل وآفاقه الحوار الديني، في ظل عالم متغير مع غياب تام لأي أرضية تأسيسية أو خارطة طريق، أو مؤسسات راعية ومسؤولة في العالم الإسلامي، أو تخصصات أكاديمية في هذا الشأن تعمل على تخريج نخبة مؤهلة للقيام بدور المحاور، اللهم ما كان من حوار على المستوى الفردي فلا بد فيه من استحضار واستيعاب كبيرين للمنطلقات التي ذكرناها سالفًا.

وعلى أمل إيجاد مؤسسات عالمية مستقلة ترعى الحوار وترشده في عالمنا، فإننا اليوم نراهن على الحوار التعاريفي القائم على أساس المشترك الإنساني من أجل التسابق ليس نحو التسلح، ولكن نحو الخير والإصلاح في الأرض، وهذا ما سنرى معالمة في الفصل الموالي إن شاء الله..



الفصل الثاني:

التعارف الحضاري

من خلال مفهومي التصديق والهيمنة



إذا كان التصديق قد شمل ما هو ثابت في الرسائل السماوية، من إيمان بالغيب بكل ما ينطوي عليه الغيب من وجود الله الواحد الأحد والملائكة والجنة والنار والبعث والنشور، والجزاء والعقاب، ومن إرسال الرسل وإنزال الكتب، وما اشتملت عليه من تشريعات ثابتة منظمة للمجتمع الإنساني، وأخلاق وقيم مزكية للسلوك والفعل الإنسانيين، وما يترتب على هذا من وحدة دينية.

فإن الهيمنة شملت، مع كل ما ذكرنا من أمور التصديق، قضية الاحتكام في حالة التعدد والاختلاف، فقد أقرت آية الهيمنة مع الآيات الأخر التي ورد فيها الذكر المباشر أو غير المباشر لهذا المفهوم بأن الاختلاف سنة كونية لن يجد الإنسان لها تحويلا ولا تبديلا، لكنها أطرته في إطار الوحدة المرجعية التي هي الله عز وجل، فهو سبحانه الذي خلق الناس مختلفين وإليه يرجعون فينبئهم بما وفيما كانوا فيه يختلفون. وهذا الإطار يطلق قدرات الإنسان سعدا نحو التنافس والتسابق في الخيرات.

فإذا كان التصديق، كما قلنا، يوحد الناس دينيا رغم اختلاف شرائعهم ومناهجهم، فإن الهيمنة توحد الناس عمرانيا وحضاريا رغم اختلاف أجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم، وشعوبهم وقبائلهم، فتتوحد البشرية وتتعاون فيما وتكون المرجعية لله في عمارة الأرض وصلاحها.

ثمة قاعدة فقهية تقول: «إذا ضاق الأمر اتسع»، هذه القاعدة تصلح أن تحكّم في الحياة ككل، وعند الاختلاف بالخصوص، فلا يجب الوقوف عند النقطة التي جرى فيها الاختلاف، وتوصد الأبواب فيحصل التصادم، فإذا اختلف طرفان دينيا مثلا، وادعى كل طرف أنه على الحق وضاق هذا الأفق، وجب الانتقال إلى أفق آخر أوسع وأرحب كما يتبين من خلال آيات عدة، منها قوله عز وجل: ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبَلَةَ بَعْضٍ﴾ (البقرة: ١٤٥)، وقوله



سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيَةٌ فَاسْتَخِرُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (البقرة: ١٤٨)، وقوله: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَخِرُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (المائدة: ٤٨)، فلا حد لأفق الخير، والحركة نحو الخير وفعله لا انقطاع لهما.

يذكر الله عز وجل نبيه ﷺ وهو يأمره -وأمرته بالتبع- بأن يبلغ رسالته، وبأن عليه البلاغ فقط وليس له أن يكره الناس حتى يكونوا مومنين ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩)، ويعلمه أنه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، ويعلمه أن الله عز وجل أعلم بما يعمل الناس وهو الذي يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ (٦٧) ﴿وَأِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٦٨) ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (الحج: ٦٧ - ٦٩).

فالبشرية، بمؤمنها وكافرها ومهتديها وضالها، يجمع بينها فوق هذا الكويكب الصغير أمانة الاستخلاف، وهذا مبدأ يحتاج الناس ذكرانا وإنانا، شعوبا وقبائل، لأن يتعارفوا عليه، وهذا التعارف له مداخل عدة، وغايات جملة كما سنرى فيما يتلو.

## المبحث الأول: مفهوم التعارف الحضاري

قبل الحديث عن مفهوم التعارف الحضاري لا بد من التمهيد لذلك بتعريف لمصطلحي التعارف والحضارة.

### (١) التعارف:

جاء في اللسان والصحاح تَعَارَفَ القوم: أي عَرَفَ بعضهم بعضاً<sup>(١)</sup>. وقيل: سمي عَرَفَةً لأنَّ الناس يتعارفون به.

وقال الراغب الأصفهاني: وتعارفوا، عرف بعضهم بعضاً، وعرفات اسم لبقعة مخصوصة، وقيل سميت بذلك لوقوع المعرفة فيها بين آدم وحواء، وقيل بل لتعرف العباد إلى الله تعالى بالعبادات والأدعية<sup>(٢)</sup>.

وجاء في الحديث «الأرواح جنود مُجَنَّدَةٌ فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»<sup>(٣)</sup>.

قال ابن حجر رحمه الله في شرح الحديث:.. قوله: «الأرواح جنود مجندة إلخ» قال الخطابي: يحتمل أن يكون إشارة إلى معنى التشاكل في الخير والشر والصلاح والفساد، وأن الخير من الناس يحن إلى شكله والشرير نظير ذلك يميل إلى نظيره فتعارف الأرواح يقع بحسب الطباع التي جبلت عليها من خير وشر، إذا اتفقت تعارفت، وإذا اختلفت تناكرت<sup>(٤)</sup>.

ويفهم من هذا التعريف «تعارف القوم: أي عرف بعضهم بعضاً»، أن التعارف لا يمكن فهمه إلا في إطار العلاقات بين البشر، مما يعطي لمفهوم التعارف قيمة إنسانية. فالإنسان يسعى إلى معرفة بني جنسه والتعارف

١- لسان العرب للفيروز آبادي مادة «عرف»، والصحاح في اللغة للجوهري.

٢- المفردات في غريب القرء ان للراغب الأصفهاني.

٣- أخرجه البخاري في صحيحه، رقم الحديث ٢٣٣٦، كتاب الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة.

٤- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٦/٣٦٩.

معهم على اختلاف أسنتهم، وألوانهم، ومعتقداتهم، وثقافتهم، وشعوبهم، وقبائلهم. فالتعرف، بهذا، لا ينحصر في معرفة الأفراد بعضهم بعضاً، بل يرتقي إلى المستوى الأممي في شموليته لاختلافات البشر، وبهذا جاز وسمه بالحضاري.

## (٢) الحضارة؛

يعد مصطلح الحضارة من أكثر المصطلحات تعريفاً، فقد أحصى العادون أكثر من مائة تعريف لمصطلح الحضارة، وما يزال تعريفه يخضع للتجديد والتطوير والتوسع، وهذا في نظرنا راجع إلى طبيعة المصطلح، فمفهوم الحضارة لا يوحي بالثبات بقدر ما يوحي بالنمو والتطور والانتقال من حال إلى حال.

ونذكر هنا بعض النماذج لأبرز التعريفات لمصطلح الحضارة، وسنقتصر على تعريفين لعلمين أحدهما متقدم، وثانيهما معاصر، وهما ابن خلدون ومالك بن نبي، ثم نردف هذين التعريفين بتعريف لأحد المفكرين المعاصرين.

يقول ابن خلدون (ت ١٤٠٦ م - ٨٠٨ هـ): «الحضارة إنما هي تفتن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه من المطابخ، والملابس، والمباني، والفرش والأنية، وسائر عوائد المنزل وأحواله؛ فلكل واحد منها صنائع في استجاداته والتأنيق فيه تختص به، ويتلو بعضها بعضاً؛ وتكثر باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعّم بأحوال الترف؛ وما تتلون به من العوائد، فصار طور الحضارة في المملك يتبع طور البداوة ضرورة؛ لضرورة تبعية الرفه للملك»<sup>(١)</sup>. ويذهب ابن خلدون إلى أن الحضارة هي أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادةً تتفاوت بتفاوت

١- ابن خلدون، المقدمة، تحقيق عبد السلم الشداوي، ج ١، بيت الفنون والعلوم والآداب، ط ٢٠٠٥.

الرَّفْهَ وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر، ويقع فيها عند كثرة التفتن في أنواعها وأصنافها، فيكون بمنزلة الصنائع، ويحتاج كل صنف منها إلى القوِّمة عليه المهرة فيه... وأكثر ما يكون ذلك في الأمصار لاستبحار العمران وكثرة الرفه في أهلها<sup>(١)</sup>. ثم ينتقل ابن خلدون في تعريف الحضارة إلى مستوى آخر من أحوال الحضارة وأطوارها، فيقول «الملك والدولة غاية للعصبية، والحضارة غاية للبداءة، والعمران كله من بداءة وحضارة وملك وسوقة له عمر محسوس كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمراً محسوساً. وتبين في المعقول والمنقول أن الأربعين للإنسان غاية في تزايد قواه ونموها، وأنه إذا بلغ سن الأربعين وقضت الطبيعة عن أثر التشوء والنمو برهة، ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط. فلتعلم أن الحضارة في العمران أيضاً كذلك، لأنه غاية لا مزيد وراءها<sup>(٢)</sup>.

ويؤكد ابن خلدون من خلال فصول المقدمة على العلاقة الوثيقة بين نشوء الحضارة وولادتها ونشوء الدولة القوية، فلا وجود لحضارة مع غياب دولة قوية، وبما أن الدين عند ابن خلدون مؤسس فاعل في نشوء الدول وقوتها فهو بالتبع مؤسس فاعل في نشوء الحضارة ورقبها، يقول رحمه الله: «إن الدول العامة الاستيلاء، العظيمة الملك، أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق»<sup>(٣)</sup>.

أما مالك بن نبي (ت ١٩٧٣ م)، فيعرف الحضارة من حيث جوهرها، ومن حيث تكوينها، ومن حيث أداؤها، ومن حيث وظيفتها، ومن حيث علاقتها مع المجتمع والآخر، فهي «مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد في كل طور من أطوار حياته المساعدة الضرورية

١- نفسه، ج ٢، الفصل ١٧، ص ٢٢٢.

٢- ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٢٦.

٣- نفسه، ج ١، ص ٢٦٦.

له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه. فالمدرسة، والمعمل، والمستشفى، ونظام شبكة المواصلات، والأمن في جميع صورته عبر سائر تراب القطر، واحترام شخصية الفرد، تمثل جميعها أشكالاً مختلفة للمساعدة التي يريد ويقدر المجتمع المتحضر على تقديمها للفرد الذي ينتمي إليه<sup>(١)</sup>. أو هي: «مجموعة من العلاقات بين المجال الحيوي (البيولوجي) حيث ينشأ ويتقوى هيكلها، وبين المجال الفكري حيث تولد وتتمو روحها»<sup>(٢)</sup>، ويضيف رحمه الله: «وبالجملة يتعلق الأمر بحالة خاصة، وشروط خلقية وعقلية لازمة للإنسان لكي يستطيع أن ينشئ أو يبلغ حضارة»<sup>(٣)</sup>.

أما عناصرها فقد لخصها رحمه الله في معادلته الشهيرة: الإنسان + تراب + الزمن = ناتج حضاري. ولكن هذه العناصر وحدها تبقى راکدة خاملة ومكدسة بدون الفاعل الذي يمزجها فيكون منها حضارة ألا هو الفكرة الدينية «إن الوسيلة إلى الحضارة متوفرة مادامت هناك فكرة دينية تؤلف بين العوامل الثلاثة: الإنسان، والتراب، والوقت، لتركب منها كتلة تسمى في التاريخ «حضارة»<sup>(٤)</sup>. فالحضارة عند مالك بن نبي روحها الفكرة الدينية، وبدونها تبقى حضارة شبيهة أو أشياء حضارية كما قال رحمه الله.

ويقول د. حامد بن أحمد الرفاعي: «مصطلحنا العربي «حضارة» جاء كما هو معلوم من التحضر ومن الحضور والاستقرار، عكس البداوة والتنقل وعدم الاستقرار. وهو الأنسب للتعبير عن حالة تفاعل وتعامل الإنسان مع مكونات الكون من حوله واستثمارها لصالح حياة الإنسان وكرامته واستقراره وتسمية مصالحه، فكلمة حضارة بالعربية تعبر عن حالة بناء

١- مالك بن نبي، مشكلات الحضارة، القضايا الكبرى، دار الفكر، دمشق، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ص ٤٢.

٢- شروط النهضة، ص ٤٢.

٣- نفسه، ص ٥٧.

٤- شروط النهضة، ص ٥٧ - ٥٨.

مركبة من (بناء اجتماعي ثقافي، وبناء مادي عمراني)، وبكلمة أخرى إنها تعبير عن حالة تكامل ما بين البناء الوجداني والبناء المادي للإنسان... أو حالة تكامل ما بين البناء الأخلاقي والبناء الإبداعي عند الإنسان... وبالتالي اقترحت من قبل وأجدد الاقتراح اليوم أن يكون تعريف الحضارة بشكل عام حسب تقديري وفهمي: «هي ثمرة كل جهد بشري يبذل لعمارة الأرض وفق ثقافة ما»، بمعنى أن لكل أمة منهجها الاجتماعي، ولكل أمة كفاءاتها ومهاراتها المادية... وفي ضوء ما اقترحت أنفا من تعريف للحضارة يمكنني القول: الحضارة من حيث شقها المادي هي نتاج بشري تراكمي، فلكل أمة إضافتها الحضارية المادية في عملية البناء المادي للحضارة البشرية. إلا أن البناء الحضاري المادي البشري ككل، تكتنفه وحدات حضارية متميزة تمثل البصمات الحضارية الإبداعية لكل أمة من الأمم، وتكتنفه كذلك وحدات من حالات أداء حضاري قيمي، يعكس ثقافة كل أمة ومنهجها وسلوكها الحضاري.

أي إننا أمام بناء حضاري مادي تراكمي، يمثل الإرث الحضاري المادي البشري المشترك، تكتنفه وحدات حضارية إبداعية، وتكتنفه سمات وممارسات أخلاقية في الأداء الحضاري البشري، تشهد لكل أمة بنوع هويتها الحضارية، وطبيعة أثرها الحضاري في حياة الإنسان والبيئة إيجابا وسلبا.

وباختصار نحن أمام تكامل وتمايز حضاري:

١- تكامل حضاري في البناء المادي:

٢- وتمايز حضاري في الإبداع والأداء الأخلاقي<sup>(١)</sup>.

١- حامد بن أحمد الرفاعي، معوقات السير الحضاري في حياة الأمم، القيم الحضارية والإنسانية المشتركة بين الواقع والمتغير، تحت إشراف عبد الحق عزوزي. م ٢ من أعمال المؤتمر الدولي حول الحضارات والتنوع الثقافي في فاس ٢٢ - ٢٥ ٢٠٠٧. L'HarmattanParis 2008. ص ١٢٤ - ١٢٦ - ١٢٨ - ١٤٠.

## - تعريف الحضارة في المدارس الغربية:

- عرفها ديورانت (١٨٨٥ - ١٩٨١) بقوله: الحضارة نظام اجتماعي يُعين الإنسان على الزيادة في إنتاجه الثقافى، وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع، وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه، للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها.

والحضارة مشروطة بطائفة من عوامل هي التي تستحث خطاها أو تعوق مسراها، وأولها العوامل الجيولوجية...ثانيها العوامل الجغرافية...، والعوامل الاقتصادية أهم من ذلك...، وما هذه العوامل المادية والبيولوجية إلا شروط لازمة لنشأة المدنية، لكن تلك العوامل نفسها لا تكون مدنية ولا تنشئها من عدم، إذ لا بد أن يضاف إليها العوامل النفسية الدقيقة، فلا بد أن يسود الناس نظام سياسي مهما يبلغ ذلك النظام من الضعف حدا يدنو به من الفوضى... ثم لا بد للناس أن يشعروا شيئاً فشيئاً أنه لا حاجة بهم إلى توقع الموت أو الضريبة عند كل منعطف في حياتهم، ولا مندوحة كذلك عن وحدة لغوية إلى حد ما لتكون بين الناس وسيلة لتبادل الأفكار، ثم لا مندوحة أيضاً عن قانون خلقي يربط بينهم عن طريق الكنيسة أو الأسرة أو المدرسة أو غيرها، حتى تكون هناك في لعبة الحياة قاعدة يراها اللاعبون ويعترف بها حتى الخارجون عليها، وبهذا يطرد سلوك الناس بعض الشيء وينتظم، ويتخذ له هدفاً وحافزاً. وربما كان من الضروري كذلك أن يكون بين الناس بعض الاتفاق في العقائد الرئيسية وبعض الإيمان بما هو كائن وراء الطبيعة أو بما هو بمثابة المثل الأعلى المنشود، لأن ذلك يرفع الأخلاق من مرحلة توازن فيها بين نفع العمل

وضرره إلى مرحلة الإخلاص للعمل ذاته، وهو كذلك يجعل حياتنا أشرف وأخصب على الرغم من قصر أمدنا قبل أن يخطفها الموت. وأخيراً لا بد من تربية -وأعني بها وسيلة تتخذ- مهما كانت بدائية. لكي تنتقل الثقافة على مر الأجيال، فلا بد أن نورث الناشئة تراث القبيلة وروحها، فنورثهم نفعها ومعارفها وأخلاقها وتقاليدها وعلومها وفنونها، سواء كان ذلك التورث عن طريق التقليد أو التعليم أو التلقين، وسواء في ذلك أن يكون المربي هو الأب أو الأم أو المعلم أو القسيس، لأن هذا التراث إن هو إلا الأداة الأساسية التي تحول هؤلاء النشء من مرحلة الحيوان إلى طور الإنسان.

ولو انعدمت هذه العوامل -بل ربما لو انعدم واحد منها- لجاز للمدنية أن يتقوّض أساسها»<sup>(١)</sup>.

- ويعرفها جورج باستيد الفرنسي (١٨٩٨ - ١٩٧٤)<sup>(٢)</sup> بأنها «التدخل الإنساني الإيجابي، لمواجهة ضرورات الطبيعة، تجاوباً مع إرادة التمرد في الإنسان، وتحقيقاً لمزيد من اليسر في إرضاء حاجاته، ولإنقاذ العناء البشري».

- وعرفها تايلر (١٩٣١)<sup>(٣)</sup>: «بأنها ذلك الكيان المعقد الذي يضم المعرفة والمعتقدات، والفنون والآداب، والقوانين والعادات، وجميع القدرات، والتقاليد الأخرى، التي يكسبها الإنسان، بصفته عضواً في المجتمع».

---

١- قصة الحضارة، ول وايريلديورانت، نشأة الحضارة، تقديم الدكتور محي الدين صابر، ترجمة ترجمة الدكتور نكي نجيب محمود، دار الجيل بتعاقد مع المنظمة العربية للثقافة والعلوم، ط ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، (ج ١ ص ٤-٦-٧). وديورانت فيلسوف ومؤرخ أمريكي من أشهر المؤرخين الموضوعيين.

٢- سوسيلوجيوأنثروبولوجي فرنسي، انظر كتابه:

«Problèmes de l'entrecroisement des civilisations et de leurs œuvres».

٣- فيلسوف وعالم سياسة كندي، انظر كتابه «le malaise de la modernité».



والمتتبع لتعريف الغرب للحضارة يجد مدرستين؛ إحداهما تتناول الحضارة بعبارة (Civilization) وقد ترجمت هذه الكلمة إلى العربية بمعنى الحضارة في حين هي تعني المدنية، والمدرسة الأخرى تعبر عن الحضارة بعبارة (Culture) أي ثقافة، في حين أن المصطلح العربي حضارة يشمل المدرستين معا، فالحضارة تتكون من الثقافة والمدنية (العمران) معا لا انفكاك بينهما.

والجامع بين هذه التعريفات جميعها، سواء الإسلامي منها أو الغربي، هو أن الحضارة يرفدها رافدان اثنان: أحدهما مادي، وهو الشق الثابت في الحضارة، وهو ما عبر عنه الدكتور الرفاعي بالشق المادي التراكمي، فالحضارة من هذا الجانب هي نتاج بشري تراكمي، وهي واحدة مشتركة بين جميع البشر، وقد صورّ هذه الوحدة الدكتور حسين مؤنس في كتابه الحضارة، تصورا غاية في الدقة، حيث قال: «الحضارة تضرب جذورا في الأرض، وكأنها نبات يزكو ويرعاه فيها جيل بعد جيل، وتظل جذور الحضارة فيها حية يظهر نباتها في أشكال شتى بحسب الناس والعصور»<sup>(١)</sup>.

أما الرافد الثاني فهو معنوي يتداخل فيه الغيب بالشهادة، كما عبر عن ذلك ديورانت أثناء حديثه عن عوامل الحضارة، تارة بالتقاليد الخلقية وتارة بالقانون الخلقي، وتارة بالعقائد الرئيسية والإيمان بما هو وراء الطبيعة أو المثل الأعلى المنشود، كما أورد رمزين من الرموز الدينية هما الكنيسة والقسيس، ويلخص دور هذا العامل بكونه يرفع الأخلاق من مرحلة توازن فيها بين نفع العمل وضرره إلى مرحلة الإخلاص في العمل ذاته،

---

١- د. حسين مؤنس، الحضارة، دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، سلسلة عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، ١ ١٩٧٨، ص ١٩٤ ١٩٥. وإلى القول بوحدة الحضارات ذهب كل من د. محمد حسين هيكل، ود. محمد عزيز الحبابي، حيث قالوا بأن العالم تسوده حضارة واحدة، ساهم فيها الكل، وهي ملك للجميع.

وهو كذلك يجعل حياتنا أشرف وأخصب على الرغم من قصر أمدها قبل أن يخطفها الموت.

ونجد مالك بن نبي يلخص ما ذهب إليه ديورانت في الفكرة الدينية فيقول: «ومن المؤكد أنه عندما نتناول الحضارة الإسلامية، فلا بد من أن يدخل في أطرافها بالضرورة عاملان هما: الفكرة الإسلامية، التي هي أصل الاطراد نفسه، والإنسان المسلم، الذي هو السند المحسوس لهذه الفكرة.

ومن هنا تعين علينا اللجوء إلى لغة التحليل النفسي بغية تتبع اطراد الحضارة باعتباره صورة زمنية للأفعال وردود الأفعال المتبادلة والتي تتولد منذ مطلع هذا الاطراد بين الفرد والفكرة الدينية التي تبتعث فيه الحركة والنشاط، وحينئذ فعندما نعتبر الفرد عند نقطة الصفر... فإننا نجده في الحالة التي يعرفها بعض المؤرخين المسلمين بـ «الفطرة»، مع جميع غرائزه. فالفرد في هذه الحالة ليس أساسه إلا «الإنسان الطبيعي» أو الفطري، غير أن الفكرة الدينية سوف تتولى إخضاع غرائزه إلى «عملية شرطية»... وهذه العملية الشرطية ليس من شأنها القضاء على الغرائز، ولكنها تتولى تنظيمها في علاقة وظيفية مع مقتضيات الفكرة الدينية. فالحيوية الحيوانية التي تمثلها الغرائز بصورة محسوسة، لم تلغ، ولكنها انضبطت بقواعد نظام معين. وفي هذه الحالة يتحرر جزئياً من قانون الطبيعة المفطور في جسده. ويخضع وجوده في كلية إلى المقتضيات الروحية التي طبعها الفكرة الدينية في نفسه، بحيث يمارس حياته في هذه الحالة الجديدة حسب قانون الروح.

فدورة الحضارة إذن تتم على هذا المنوال، إذ تبدأ حينما تدخل التاريخ فكرة دينية معينة، أو «عندما يدخل التاريخ مبدأ أخلاقي معين»... كما أنها تنتهي حينما تقعد الروح نهائياً الهيمنة التي كانت لها على الغرائز مكبوحة الجماع.

والاعتبارات هذه تبيّن لنا كيف «تشرط» الفكرة الدينية سلوك الإنسان حتى تجعله قابلاً لإنجاز رسالة «محضرة»، غير أن دور الفكرة الدينية لا يقتضي بالوقوف عند هذا الحد. فهي تحل لنا مشكلة نفسية اجتماعية أخرى، ذات أهمية أساسية تتعلق باستمرار الحضارة. فالمجتمع لا يمكنه مجابهة «الصعوبات» التي يواجهها بها التاريخ كمجتمع، ما لم يكن على بصيرة جلية من هدف جهوده.

غير أن النشاط الاجتماعي لا يكون مثمراً وفعالاً وقابلاً للبقاء والاستمرار إلا مع وجود «سبب» معين، يكون من شأنه أن يشترط الطاقات التي يحركها هذا السبب بغائية معينة.

ثم يضيف: «وعلاوة على ذلك، فالفكرة الدينية التي تشرط سلوك الفرد - كما سبق أن أوضحنا ذلك - تخلق في قلوب المجتمع بحكم غائية معينة. وذلك بمنحها إياها الوعي بهدف معين، تصبح معه الحياة ذات دلالة ومعنى. وهي حينما تمكن لهذا الهدف من جيل إلى جيل ومن طبقة إلى أخرى، فإنها حينئذ تكون قد مكنت لبقاء المجتمع ودوامه وذلك بتثبيتها وضمانها لاستمرار الحضارة»<sup>(1)</sup>.

وبمثل هذه المركزية للفكرة الدينية في الحضارة قال ابن خلدون، حيث اعتبر الدين مؤسساً فاعلاً في الحضارة. وهذا يجرنا إلى الحديث عن علاقة الدين بالحضارة.

### - الدين والحضارة

يعتبر الدين ثابتاً من ثوابت الحضارة، ورافداً من روافدها على مر

---

١- مالك بن نبي، مشكلات الحضارة، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي، إصدار ندوة مالك بن نبي، دار الفكر للنشر والطباعة والتوزيع، ص ٦٦-٦٧-٧٠-٧١-٧٢.

العصور رغم ما حصل من اختلالات واضطرابات بهذا الصدد عبر التاريخ فحتى أواخر القرن السابع عشر، كان الدين يشمل جميع مناحي الحياة، ليبدأ بعد ذلك في التراجع والانحسار شيئاً فشيئاً، حتى أصبح منحصرًا في أماكن العبادة في بعض المجتمعات. وحسب تعبير دوركهايم (١٨٥٨-١٩١٧م): «فإن الحقيقة الأكيدة اليوم هي أن الجزء الذي يشمل الدين من الحياة الاجتماعية بات يتقلص أكثر فأكثر، في حين كان في الأصل يشمل كل شيء»<sup>(١)</sup>.

فالرهان الكبير بالنسبة للمجتمعات الإنسانية والقيادات الدينية أكثر من أي وقت مضى هو كيفية إعادة إعمال الدين في الحياة اليومية للإنسان؟ أو بعبارة أخرى كيفية إعادة المركزية للدين في الحياة الإنسانية؟.

إن المسيحيين والمسلمين تقع على عاتقهم مسؤولية عظيمة تجاه المجتمع الإنساني، ف«المسيحية والإسلام هما أكبر ديانات العالم ومايزالان محتفظين بكامل عنفوانهما. وعلى مدار التاريخ مارس أتباع دياناتنا دورا متناقضا بصورة ما في تسيير أمور عالمنا وهو الدور الذي لا ينكر الجانب الإيجابي منه إلا المتحاملون. فقد أدى كل من الإسلام والمسيحية مآثر جليلة للمجتمعات الإنسانية عن طريق التعليم والتكافل الاجتماعي وزرع القيم الأخلاقية السامية من أجل خير البشرية. ويشعر الكثيرون، بغض النظر عن انتماءاتهم العقائدية، بالعرفان بالجميل نحو المبادئ التي تربوا عليها، والتي أسست مجتمعاتهم عليها من خلال إيمان مستتير، نهل منه الملايين من المهد إلى اللحد. وفي موطني يعي الكثيرون -حتى هؤلاء الذين لم يعودوا يرتادون الكنائس- أن البعد التام عن تلك المبادئ سيكون له أثره المدمر على مجتمعتنا. فهناك اعتراف ضمني بأن الدين في صورته المثلى -

١- نقلا عن إبراهيم محمود، المسيحية والإسلام تصورات متخيلة ورهانات سياسية، مقال نشر بمجلة الاجتهاد العدد ٢٠، السنة الثامنة شتاء العام ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص ٢٠٣.

لديه الكثير ليقدمه إلى عالمنا هذا، ويعطينا الشجاعة على مواجهة الأسئلة الجوهرية الخاصة بالحياة والموت، وهدف الحياة ومعناها»<sup>(١)</sup>. هكذا صرّح رئيس الكنيسة الإنجيلية في بريطانيا في محاضرة ألقاها بجامعة الأزهر سنة ١٩٩٥ بأهمية الدين في الحياة البشرية، وحذّر من العواقب المدمرة للمجتمعات الإنسانية الناتجة عن تردي مكانة الدين وتراجعها في الحياة الإنسانية.

فالحديث إذن عن مركزية الدين في الحياة البشرية، هو حديث عن مركزية الدين في الحضارة، لأن هذه الأخيرة ما هي إلا نتاج وتجلٍ للفعل والسلوك البشري. والرسالات السماوية جميعها ما جاءت إلا لترشد السلوك وتوجهه نحو التي هي أقوم.

فالدين لا يقدم للإنسان كيفية صنع الطائرات والسيارات والمصانع وغير ذلك، وإنما يقدم له تصورات عن هذا الكون الذي يحويه، ومن ثم يطلق قدراته صعوداً نحو آفاق السموات والأرض ﴿يَمَعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَنِ﴾ (الرحمن: ٣٣).

فالدين يقدم دليلاً لصياغة الإنسان السوي المتوازن، لأن الحضارة نتاج لعمل الإنسان وانعكاس للنفس البشرية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١)، فالنفس البشرية هي التي تصنع أحداث التاريخ. والإنسان، بغض النظر عن عقيدته، مؤمناً كان أو كافر، يبقى هو صانع التاريخ وصانع الحضارة ﴿كُلًّا نُمِدُّ هُنُوْلًا وَهَتْوْلًا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء: ٢٠)، لكن الفرق يكمن في فلسفة الصناعة، فواحد يصنع الحضارة وفق منهج الله وسننه في الكون التي لا تبديل لها ولا

١- جورج ليونارد كاري، العلاقات بين الديانات الكبرى، مقال نشر بمجلة الاجتهاد العدد ٢٠، السنة الثامنة شتاء العام ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص ٢٠٥-٢٠٦.

تحويل، والآخر يصنعها وفق هواه. والفرق بين هاته الصناعة وتلك يكمن في ما تقدمانه للإنسان من سعادة ورفي، أو ضنك وتردًا، كما يكمن في المآل الذي تؤولان إليه، أستمرا وازدهارًا أم اندثار ودمارًا. فالأساس الذي تقوم عليه الحضارة هو الذي يتحكم في بقائها أو زوالها. وسنتحدث عن هذا ببعض التفصيل عند الحديث عن مداخل التعارف وبالضبط أثناء الحديث عن ضرورة السير في الأرض، والاعتبار بمصير الأمم والحضارات السابقة.

وباعتبار الدين روح الحضارة، فإن محددي التصديق والهيمنة، يقدمان للإنسان الحضاري مجموعة من القواعد والقيم المشتركة، التي جاءت بها الرسالات السماوية جميعا، وصدقها القرآن الكريم وهيمن عليها (من مثل قيم العدل والكرامة وحقوق الإنسان بمجملها، والأخلاق، ورفض الفساد في الأرض، وإنكار الظلم، وغير ذلك من القضايا المشتركة)، فوجب التعارف عليها حضاريا خدمة للمجتمع الإنساني العالمي، وحفظا لإنسانية الإنسان والارتقاء به نحو مدارج الاتزان.

### ٣) التعارف الحضاري:

نشأت نظرية حوار الحضارات وصدامها في الغرب مع المفكر الفرنسي روجي غارودي، واتسعت مع دعوة الأمم المتحدة لحوار الحضارات، كما انفرد هينتفتون بمقولة صراع الحضارات واستطاع تعميمها على نطاق واسع. وانساق المسلمون وراء هذه النظرية بشقيها الحوار/الصراع بين مؤيد ومدافع ومعارض ورافض..

واليوم بحمد الله تؤوب نخبة من مفكري الأمة<sup>(١)</sup> إلى كتاب الله، لتستمد

---

١- وعلى رأسهم الدكتور زكي الميلاد رائد أطروحة التعارف الحضاري، وإن كانت لازالت في طور التأسيس.

رؤيته المستوعبة والمهيمنة على باقي النظريات في العلاقة بين الحضارات، وبين عموم بني الإنسان الذين هم أساس الحضارة. فارتفعت هذه النخبة بأية التعارف من مجرد الاستشهاد إلى مستوى بناء المفهوم وتأسيس الإطار المرجعي الحاكم، منطلقين في ذلك من قول الله عز وجل ﴿يَتَأَيَّأُ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝﴾ (الحجرات: ١٣).

فقد شاءت حكمة الله عز وجل أن يجعل الناس مختلفين، ولو شاء سبحانه لجعلهم على نمط واحد مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُ الْأَوْنُ مُخْتَلِفِينَ ۝﴾ (هود: ١١٨). ومن آيات الله، هذا الاختلاف الذي نشهده في الكون عبر كل مخلوقاته، بما فيها الإنسان، واختلاف جنسه ولونه ولغاته، مصداقا لقول الله عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ الْأَلْسِنَةَ وَاللُّغُومَ ۝﴾ (الروم: ٢٢).

وهذا الاختلاف بين الناس الذي هو آية من آيات الله كما سبق ذكره، هو «كاختلاف ألوان الورد في البستان، أو كاختلاف الأزياء التي يرتديها الإنسان» كما قال الغزالي رحمه الله، فهو ليس اختلاف تناكر وتنافر بل هو اختلاف تعارف وتكامل، وقد جعل الله لهذا الاختلاف والتعدد والتنوع قاعدة تؤسسه وتؤطره، ألا وهي قاعدة «التعارف» في آية سورة الحجرات. فالخطاب في هذه الآية لكل الناس بجميع شعوبهم وقبائلهم بأن الله جعلهم - وهذا الجعل إلهي ليس للإنسان فيه الاختيار - متعددين «شعوبا» وليس شعبا واحدا، «قبائل» وليس قبيلة واحدة، «لتعارفوا» لا لتفاضلوا، وجدير بالذكر أن هذه الآية جاءت في سياق خطاب أقوام المومنين، ونهيههم عن السخرية من بعضهم البعض، عسى أن يكونوا خيرا منهم، وشمل النهي أموراً ينبغي تجنبها في تعامل المومنين بعضهم مع بعض، لينتقل الخطاب إلى الناس كافة، ويقرر أن الناس جميعهم من ذكر وأنثى، وأن لا فضل لشعب على

شعب ولا لقبيلة على قبيلة، وأن أكرم الشعوب وأكرم القبائل «أتقاه»، فكرامة الشعوب والقبائل مقرونة بالتقوى.

وفي هذا الصدد يقول الشيخ الشنقيطي رحمه الله في تفسيره لآية التعارف: «لما كان قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ يدل على استواء الناس في الأصل، لأن أباهم واحد وأمهم واحدة، وكان ذلك أكبر زاجر عن التفاخر بالأنساب وتداول بعض الناس على بعض، بين تعالى أنه جعلهم شعوباً وقبائل لأجل أن يتعارفوا، أي يعرف بعضهم بعضاً، ويتميز بعضهم على بعض لا لأجل أن يفتخر بعضهم على بعض ويتداول عليه.

وذلك يدل على أن كون بعضهم أفضل من بعض وأكرم منه إنما يكون بسبب آخر غير الأنساب، وقد بين الله ذلك هنا بقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَفْضَلُكُمْ﴾ فاتضح من هذا أن الفضل والكرم إنما هو بتقوى الله لا بغيره من الانتساب إلى القبائل، ولقد صدق من قال:

فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب

وقد ذكروا أن سلمان رضي الله عنه كان يقول:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم»<sup>(١)</sup>.

ف«لتعارفوا» تشمل مجموعة من المبادئ التي يقوم عليها هذا التعارف؛ لتعارفوا أيها الناس فقد خلقتكم من ذكر وأنثى (أسرة واحدة)، ثم امتدتم شعوباً وقبائل متعددين ومختلفين، ولتعارفوا أيها الناس فتدركوا أن أكرمكم عند الله أتقاكم، فلا تمايز ولا تفاضل ولا كرامة لشعب على شعب أو قبيلة على قبيلة إلا بالتقوى، وحقيقة هذه التقوى لا يعلمها إلا الله ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ (النجم: ٣٢). فالتعارف، إذن، دينامية منطلقها

١- أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن، م٧، ص ٤٢١.



وعيكم أنكم مختلفون متعددون ولا أحد منكم يملك الحقيقة ﴿وَإِنَّا أَوْ  
إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ: ٢٤)، ويوم ترجعون إلى  
الله ينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ  
تَخْتَلِفُونَ﴾ (الأنعام: ١٦٤).

فالاختلاف ينشئ حركة مستمرة في الكون عبر السعي والاقتراب من  
الحقيقة، ولو كانت الحياة على نمط واحد لكانت سكونية، ولنضرب لذلك  
مثالاً بالإنتاج؛ فلو كان الإنتاج على نمط واحد لما كانت هناك دينامية  
تجارية، وقس على ذلك في مجالات الفكر والثقافة والعلم، فالاختلاف هو  
الذي ينشئ الحركة ويولد التدافع والتعارف الحضاريين، وكذا التسابق  
نحو الاكتشاف والابتكار والإعمار في تكامل متنام نحو مستقبل البشرية  
المنشود.

وهذا التعارف الحضاري لا بد له من منطلقات ومداخل وغايات تضبطه  
وتؤطره نحو المتغيى منه.

## المبحث الثاني: منطلقات ومداخل وغايات التعرف الحضاري

### (١) المنطلقات:

- وحدة الأصل الإنساني:

يقول الله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْفُوعاً رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا رَوْحَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ (النساء: ١)، فهذه الآية تؤكد على أن البشرية كلها، ترجع إلى أصل واحد عبر عنه القرآن الكريم بـ «النفس الواحدة»، فالبشرية عبر امتدادها وسيورتها الزمنية والحضارية ترجع إلى هذا الأصل الواحد/ النفس الواحدة، التي خلق الله عز وجل منها زوجها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾، ثم امتدت البشرية «شعوباً وقبائل»، وهو ما يصطلح عليه بالأسرة الممتدة، ممتدة من آدم وحواء إلى البشرية جمعاء، تحكمها حقائق روحية ومادية واحدة. والاختلاف الحاصل بين الأفراد والجماعات البشرية لا يمكنه تغييب هذه الحقيقة، وإنما تعتبر كل الاختلافات العقدية، والثقافية، وغيرها، مظهراً سننياً في إطار سنن الله في الوجود.

«العلامة الكبرى الفارقة التي يُعرف بها الدين، هي إشعار الناس بدون تمييز بين إنسان وآخر بوحدة أصلهم. وهذا هو الرهان الكبير بالنسبة للديانات كلها، وخاصة المسيحية والإسلام أكثر من أي يوم مضى، أي تأكيد ديمقراطية الانتماء إلى الأصل الواحد، وأخوة الانتساب إلى الأب الواحد «كلكم لآدم، وآدم من تراب»، وهذا لن يتم إلا من خلال ممارسات فعّالة، ومثمرة إنسانياً. فهل توجد الاستعدادات لدى (أولي الأمر)، تلك التي تجعل الدين لله والوطن للجميع) بالفعل»<sup>(١)</sup>.

١- إبراهيم محمود، المسيحية والإسلام تصورات متخيلة ورهانات سياسية، مقال نشر بمجلة الاجتهاد العدد ٢٠، السنة الثامنة شتاء العام ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص ٢٠٢.

## - وحدة البيت المشترك:

هذا الكوكب المشترك الذي تعيش عليه البشرية بجميع ألوانها وأجناسها، هذه الأرض التي استخلف الله فيها الناس واستعمرهم فيها ﴿هُوَ أَشْأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١)، فلا مستقر للإنسان غير هذه الأرض مصداقا لقوله عز وجل: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (البقرة: ٣٦)، وهو مستقر مؤقت بمؤقتة الحياة الدنيا.

## - وحدة الإنسانية:

إذا تقررت وحدة البشرية، فإن ما يضمن لهذه البشرية إنسانيتها ويحفظها هو واحد أيضا، فما تستلزمه الإنسانية من حياة كريمة، واحترام، وعدل ومساواة، وتكامل بين الأفراد والمجتمعات، هو شيء مشترك لا فرق فيه بين الشمال والجنوب، ولا بين الشرق والغرب، ولا بين الأبيض والأسود. فلا بد للإنسانية من حياة تتوازن فيها الروح والمادة وتسمو بها عن عالم الحيوان، حياة يتحقق فيها الرقي والازدهار، ويكون الاحتفاء فيها بالأنثى وليس بالأنثى. وخلاصة القضية أنه: «كيفما عرفنا الحضارة فإنه يجب أن نقر بأن الصفة الإنسانية. بمعنى امتلاك الاتجاه العام لخدمة الإنسان وتطوير إمكاناته الذاتية والعرضية هي أهم مقوماتها بلا ريب. ولا يمكن أن يتسم أي مذهب أو تخطيط أو حتى مجرد سلوك بالسمة الحضارية إلا إذا اتسم بالصفة الإنسانية»<sup>(١)</sup>.

## (٢) المداخل:

إن مداخل التعارف الحضاري هي مداخل معرفية بالأساس، وذلك لتلازم التعارف بالمعرفة، فلا تعارف بدون معرفة، وعليه فإنه يمكن إجمال هذه المداخل في ثلاث خطوات معرفية، لكل منها مستلزمات علمية:

١- د. علي الشخيري، القيم الإنسانية المشتركة، مرجع سابق، ص: ١٧٠.

- الخطوة الأولى: الاستكشاف، وهو أمر لا يمكن تصوّر وقوعه بدون ما يلزم من آليات منهجية ولغوية تعتبر مداخل لهذا الاستكشاف، كما لا يمكن تصور حدوثه دون اكتساب ما يلزم من مهارات ومقتضيات مادّية لدراسة العلوم والآداب والفنون والصناعات والشرائع والنظم التي تؤثت الفضاء الحضاري للآخر، والتي هي جميعاً مُتجلىّ المعتقدات والتصورات والسوابق المعرفية والبرديغمات المؤطرة والقيم والمعايير المعتمدة من لدن أهل حضارة معينة، مع ضرورة مواكبة ذلك كله بالانتباه المتوفّر للفروق بين مختلف الحقول العلمية والعملية، والتفاوتات التاريخية، ومع الملاحظة الدقيقة والجمع المستويّ للمعطيات، مع دراستها وتحليلها بالمناهج الملائمة، وهي مناهج يضطر المستكشف في كثير من الأحيان إلى أن يبنّيها بناءً.

- الخطوة الثانية: الاطلاع على معتقدات الآخر تصوراتهِ وسوابقهِ المعرفية والبرديغمات، والقيم والمعايير التي يعتمدُها، والمعرفة بها معرفة دقيقة حسب الإمكان، وقياس تأثيراتها، وتتبع تجلياتها في حياة الناس أفراداً وجماعات، وهذا أمر لا يمكن تصوّر حدوثه دون ركوب مركب المعارف المساعدة، والتشهير للقيام بالبحث العلمي اللازم بالمناهج الملائمة، مراعاة للسياقات التاريخية والحضارية والثقافية المتنوعة. كما لا يمكن تصور دخول هذه المجالات المركّبة دون الاستثمار الزمني والنفسي والذهني والمادّي الملائم، إذ هو دخول لا يمكن أن يتم دون التعاطي الميداني التفاعلي المباشر مع أهل الحضارات المختلفة ومكوناتها.

- الخطوة الثالثة: صياغة استراتيجيات التواصل والتخاطب، حسب أولويات وظيفية مرتبة على علم، للوصول إلى درجات أكثر تقدماً وبنائية في التعايش، مما له مستلزماته العلمية والتكوينية التي لم نولها في أوطاننا ما يلزم من الأهمية، وإلا تُستجمع هذه المستلزمات وتُوجَّزُ ميدانياً في مدارسنا وجامعاتنا وميزانياتنا ودبلوماسياتنا، فإن الحديث عن التعايش سوف يبقى مجرد شعارات.

وهذه الخطوات لا سبيل لها إلا ب:

#### - القراءة:

فقد كان أول ما نزل من الوحي هو الأمر بالقراءة في الكتابين المنظور والمسطور، وقدم الأمر بالقراءة في الخلق على غيره، فأول ما يجب التفكير فيه هو خلق الإنسان، وأول ما يبدأ به في مجال المعرفة، هو معرفة الإنسان ذاته ومن ثم يمكنه معرفة الآخرين وما يحيط به، «معرفة النفس الإنسانية هي أول الطريق نحو الحضارة الإنسانية»، فليست الحضارة إنتاجاً بشرياً، وهي فعل إنساني بالأساس.

وقراءة الإنسان تنقسم إلى قسمين: قسم يخص الإنسان في ذاته فرداً ثم مجتمعا، وقسم يخص منتوج الإنسان المعرفي، أي ما راكمه البشر من معارف وعلوم من خلال قراءتهم في مجالات الوحي، والكون، والإنسان.

فالقسم الأول يشمل العادات والتقاليد والأعراف، والتاريخ، والفكر، والثقافات، والعلاقات،... مما يستعان به على فهم خصائص الإنسان فردا واجتماعا، وإدراك آفاق التعامل المشترك معه. أما القسم الآخر، فتجب قراءته لأن الإنسان تكاملي في ذاته ومع بني جنسه، فالمعرفة البشرية تكاملية عبر الأزمنة والأمكنة، وليست هناك معرفة بشرية مطلقة يمكن الوقوف عندها وعدم تجاوزها، بل الإنسان في اكتشاف واكتساب مستمرين للعلوم والمعارف، وقراءة هذا التراث البشري المعرفي هي قراءة استيعاب وتجاوز في إطار تصديق الوحي وهيمنته.

#### - العلم:

العلوم الموضوعية والمحيدة، التي لا تتغير حقائقها وقوانينها بتغير عقائد وحضارات الباحثين فيها، وذلك لثبات موضوعات هذه العلوم، وتمائل ثمرات تجاربها، مهما تعددت وتغايرت هويات القائمين بها. فالعلوم من

هذا الصنف تمثل مشتركا إنسانيا، ورصيда جامعا بين مختلف الحضارات الإنسانية عبر الزمان والمكان.

وفي هذا الإطار، كان انفتاح العرب والمسلمين على فلك الهند وحسابها.. وعلى التراتيب الإدارية الفارسية.. وتدوين الدواوين الروماني.. والعلوم الطبيعية عند الإغريق.. وفي هذا الإطار - أيضا. كان انفتاح الحضارة الغربية إبان نهضتها الحديثة على الحضارة الإسلامية وأخذها من هذا الرصيد الإنساني المشترك، وتطويره والبناء عليه والإضافة إليه.

- السير في الأرض:

لماذا السير في الأرض وليس في غيرها؟، لأن الأرض هي مستقر الإنسان ومسرح الحياة وأحداثها وتاريخها، ومستودع الإنسان بعد الموت. وليس المراد بالسير السياحة المادية، وإنما السياحة الفكرية، أي السير في الأرض بقلوب عاقلة وأذان سامعة وعيون ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (الحج: ٤٦)، إنه السير باستعمال كل مداخل المعرفة في الإنسان وتوظيفها. وقد ورد الأمر بالسير في الأرض في ثلاثة عشر موضعا مقترنا بأمر آخر وهو النظر ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (، وليس النظر بمعنى الرؤية البصرية المجردة، وإنما هو عمل الجوارح (القلب والأذن والعين) مجتمعة، إنه النظر المنتج للعلم والمعرفة عن طريق النظر في الشواهد والبيانات والدلائل. وهذا النظر ليس في السماء ولا في باقي المخلوقات، وإنما هو نظر في عواقب أقوام عاشوا فوق هذه الأرض، ووقعوا أضرب كسب مختلفة على ظهرها، والنظر في ما انتهوا إليه، إنه نظر في واقع حياة الناس لاكتشاف السنن والقوانين التي تحكم سير الحياة والعمران البشري.

لهذا، أمر القرآن الناس بالسير في الأرض، لينظروا ما آل إليه القوم الذين كذبوا ورفضوا تشكيل الحياة والحضارة بالوحي، وأشركوا بالله وشكلوا حضارتهم بمنهج الأهواء، ولينظروا أن القوة لا تشكل مقياس الحضارة بمفردها، وإنما التقوى والإيمان هما أساس كل تشكل حضاري سليم في حياة الناس، يقول عز وجل ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظِلِّمَهُمُ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ((الروم: ٩)) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْكُفْرِينَ أَثْمَلَهُمْ﴾ (محمد: ١٠) ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ﴾ (آل عمران: ١٢٧).

كما تضمن القرآن الكريم دعوة للسير في الأرض والنظر في تاريخ البشرية، للوقوف على ما فيها من تدافع بين الإيمان والكفر بين الصلاح والفساد، وبين الخير والشر، وهذا النظر يوقف الإنسان على حقيقة ركنية بالغة، وهي أن البقاء للأتقى ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٨). مما يُمكن من السير المستدام الموقن بالنجح، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١) ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (النمل: ٦٩) ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ﴾ (النحل: ٣٦) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف: ١٠٩).

فمقتضى السير في الأرض، إذن، هو أن يكون الإنسان/ الأمة في حالة رصد واقعي ودائم للتحويلات النفسية والواقعية للشعوب، سواء في الماضي

أو الحاضر، وهذا ما تختزنه القصص والأمثال القرآنية في كشفهما مسار الأحداث في الماضي والحاضر والمستقبل، أن يتحقق الإنسان/ الأمة بالوحي نفسيا وواقعا، وأن ترصد أحداث الزمن والعالم، فتعتبر بالماضي في بناء الحاضر والمستقبل. وذلك «نظرا لكون الإنسان هو الإنسان في الماضي والحاضر والمستقبل، ونظرا لكون السنن الحاكمة في الكون والحياة لا تحويل لها ولا تبديل».

### (٣) الغايات:

#### - الوعي بالمسؤولية المشتركة:

سواء تجاه الكون أو تجاه مستقبل ومصير البشرية المشترك، فالأزمات التي تعاني منها الإنسانية اليوم لم تعد تتصف بطابع المحلية والخصوصية بل أصبحت عالمية تشمل البشرية جمعاء.

وما يهدد الإنسانية يهدد الكون كذلك والعكس صحيح، باعتبار المواءمة الموجودة بين الإنسان والكون، وأغلب الأزمات الحضارية، إن لم نقل جلها، ناتجة عن عدم فهم الإنسانية طبيعة العلاقة بينها وبين الكون، فاعتبرتها علاقة استهلاك واستنزاف بدل علاقة استخلاف وتسخير.

إن مثل المسؤولية المشتركة التي تقع على عاتق البشرية التي تعيش فوق هذا الكويكب الصغير، مثل «قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نوذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعا!».

وإن النظرة التي لا تعتبر من كل امرئ إلا مسؤوليته الفردية «تفتت الإنسانية تفتيتا يجعلها ذرات متناثرة لا سلطان لها على الكون، ولا هيمنة



لبعضها على بعض...إن الصورة التي ترسمها هذه الخطوط عن حقيقة مسؤولياتنا المباشرة، صورة ناقصة مبتورة، وهي صورة تغض من قيمة الإنسان المسؤول؛ إذ تجعله آلة أو شبه آلة أو تجرده من منصب خلافته في الأرض»<sup>(١)</sup>.

#### - العمل المشترك على تزكية الفعل الإنساني الحضاري:

وذلك بمعرفة حقيقة الوجود، فيتجه الإنسان نحو ربه خالق الوجود الحق، ينشد قربه في كل وقت وحين، وينبذ الهوى ويبعد الشيطان عن مجال حركته وسعيه، ويبتعد عن الباطل والشرك والآثام ﴿كَلَّا لَا تُطَعَّمَهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ (العلق: ١٩). ويعرف أن الكون يسير عبر قوانين وسنن ثابتة ومنضبطة لا تتخلف، فيبتعد في تفسير الظواهر الكونية والإنسانية عن الخرافة والشعوذة والأساطير الباطلة. ويعلم أن الوحي نازل من خالق الكون والإنسان، فيعرف أن الذي خلق أعلم بمن خلق، وهو أعلم بما يصلح وما يفسد الخلق، وما يزكي وما يدسي الحياة، فيقبل عليه طالبا الرشده والهدى والصلاح في شتى مناحي الحياة. فإذا زكى الفعل الإنساني، زكت الحياة البشرية، وتحقق العمران الذي هو غاية الخلق.

وفي هذا الصدد، قال رئيس الكنيسة الإنجيلية في بريطانيا: «إن الحقيقة المشتركة بيننا هي أننا نشهد بأن هذا العالم لم يخلق عن طريق الصدفة، ولا يمكن تفسيره من خلال ما نستطيع أن نراه ونلمسه فقط، ولذا فإننا نشترك في الوقوف ضد العلمانية كنظام لتفسير الحياة والمعرفة والحضارة بدون أي إشارة إلى ما هو بعد هذه الحياة. فنحن نرفض تلك النظريات التي تتعقل البشرية والحضارة الإنسانية كنظام فكري قائم بذاته لا يعترف بالغيبيات. ونحن نرفضها لأننا نؤمن بأن الحياة لا معنى لها بدون الإيمان

١- من خلق القرآن، د. عبد الله راز تحقّق: عبد الله إبراهيم الأنصاري، قطر، ١٩٧٩، ص: ٢١٦.

بالغيب. فالبشرية تحتاج إلى الإيمان لكي تستطيع أن تواصل الحياة»<sup>(١)</sup>. كما قال رئيس الجمعية العامة للأمم المتحدة: «إن العالم يشهد إفلاسات عدة، لكن أسوأها، الإفلاس الأخلاقي لمجتمعات البشرية الأكثر تطورا !!... يجب أن نعطي الأخلاق المكان المحوري الذي يجب أن يكون لها في حياتنا... إنه من دون البعد الروحي، لن يكون ممكنا نجاح أفضل البرامج تخطيطا لمحاربة الجوع والفقر والحفاظ على السلام»<sup>(٢)</sup>.

فإذا كانت الرسائل السماوية جاءت لترشد الفعل الإنساني، فإن من تمام الرشد أن يحقق الإنسان ذاته بالإيمان والوعي والتأمل، وأن تكون له حضارته الإنسانية المتوازنة، تحفظ له موقعه ومكانته فيما يكسبه من توقيعات إنسانية وحضارية.

#### - عمارة الأرض والمحافظة على أصل الصلاح فيها:

لما أراد الله عز وجل أن يستخلف الإنسان في الأرض، قال للملائكة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠). ويقول الله عز وجل: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١)، ويقول سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظِلِّمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الروم: ٩). فغاية الاستخلاف في الأرض عمارتها، وال عمران نقيض الخراب، لهذا سجل القرآن المجيد اعتراض الملائكة على استخلاف الإنسان في الأرض، لأنه سيفسد فيها ويسفك الدماء. والإنسان

١- جورج ليونارد كاري، مجلة الاجتهاد، مرجع سابق، ص: ٢١٢.

٢- نقلًا عن مقال لفؤاد حمادي: «حواد الحضارات: خطوة أولى نحو تكامل الحضارات».

بطبيعته، فيه استعداد للإصلاح والإفساد، للتعكير والتخريب، يقول الله عز وجل: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ (الروم: ٤١)، ويقول سبحانه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ (الأعراف: ٥٦).

فالبشرية اليوم تعيش فوق كوكب صغير يسمى الأرض، وهو على شفاعته لا يعدو كونه نقطة زرقاء سابحة في الفضاء. وكوكبنا بحكم اكتشاف سكانه عددا من الإمكانيات الهائلة التي تقرب المسافات، وتطوي الزمان، وتيسر التأثير والتأثر، قد أضحى أشبه بخلية النحل الهائجة المائجة، وأضحى عليه هذه المجموعة البشرية أشبه بالبووضة الملقحة التي يمكن أن يتولد عنها كائن إنساني سوي وخير، كما يمكن أن يتولد عنها مارد مدمر لذاته وللحياة من حوله.

وبناء على هذا الإدراك، فإن التعارف اليوم قد تجاوز بمراحل كونه مجرد اختيار إلى صيرانه ضرورة؛ ولاسيما أن البشرية اليوم قد أصبحت أفعال وأقدر في مجالات التدمير منها في كل العصور التي مضت. فتحن نمتلك من القنابل النووية والذرية والهيدروجينية وغيرها، ما نستطيع به تدمير الأرض آلاف المرات وليس مرة واحدة. ويكفي تسلسل قناعة مظلمة لوإذا إلى عمق الإنسان، فتستقر فيه، لكي يدمر هذا الكويكب الذي ليس لنا ملجأ سواه: فلا أرض. راهنا. سوى هذه الأرض يمكن أن تقل النوع البشري.

ومن أجل المحافظة على أصل الصلاح في الأرض، جعل الله التدافع بين الناس، يقول الله عز وجل في موقعين من كتابه العزيز أولهما قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥١)، وثانيهما قوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهَادَتِ صَوَامِعُ وَبِعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ

اللَّهُ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا  
 الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾  
 (الحج: ٤٠ - ٤١).

- التسابق نحو الخيرات:

رأينا في فصل التصديق، أن من الأمور التي صدق فيها القرآن الكريم  
 الكتب السابقة؛ فعل الخيرات، ورأينا أن الأنبياء جميعا والمؤمنون بهم  
 كانوا يسارعون في الخيرات وكانوا لها سابقين. و«مفرد الخير هو الأكثر  
 ورودا في القرآن الكريم بعد الرحمة والرحمن والرحيم، وهو يعني الأحسن  
 والأجمل في التفكير والفعل والتصرف، والملاحظ أن القرآن يجمع «خير»  
 على «خيرات» عندما يتعلق الأمر بالعلاقات مع الأديان والأمم الأخرى  
 ﴿فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾ (البقرة: ١٤٨)، ومن الواضح أن هذه القيمة الكبرى  
 تتعالق وتتشابك مع بقية أجزاء المنظومة القيمية. إن الخطاب القرآني يعد  
 المنظومة القيمية هذه مسددة إن سادت، للنظرة إلى العلاقات بين الأمم  
 والحضارات، وأنها تحتوي على الضمانات التي تحول دون الفساد والإفساد  
 لطبيعة الإنسان وفطرته، ولعلاقات الناس بعضهم ببعض<sup>(١)</sup>. وفي هذا  
 وجب أن تتنافس الأمم والشعوب وتتسابق، ليس في التسلح وامتلاك من  
 ذلك ما يدمر الأرض مرات عديدة، في حين أن الأرض لا تحتاج لأن تدمر  
 أكثر من مرة!.

- التعاون من أجل إيجاد حلول للأزمات الإنسانية:

إن البشرية، بحكم اجتماعها في هذا الكوكب الذي لا مستقر لها سواه،  
 وبحكم اكتشافها عددا من الإمكانيات الهائلة التي تقرب المسافات وتطوي

١- رضوان السيد: «القرآن والتاريخ: الرؤية القرآنية في الأمم والحضارات»، مجلة التفاهم، س ٩،

عدد ٢٢، ص: ١٨.

الزمان وتيسّر التأثير والتأثر، أصبحت أزمتها كونية عالمية ولم تعد محلية.

وفي هذا الصدد يقول الدكتور عبد الله دراز رحمه الله: «إننا مسؤولون ماديا وأديبا عن كل ما تجري به المقادير حولنا؛ نسأل عن جوع الجائع، فنطعمه ونغذوه، وعن عري العاري فنستره ونكسوه، وعن جرح الجريح، فنأسوه، وعن الفقير فنغنيه، وعن تشرد ابن السبيل فنؤويه، وعن جهل الجاهل وضلال الضال فتعلمه ونهديه»<sup>(١)</sup>، إن رد فعل الإنسان تجاه هذه القضايا الإنسانية كلها هو إغاثة اللهفان وهداية الحيران، وليس الوقوف موقف المتفرج وحاله يقول: ﴿أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (يس: ٤٧).

وهناك أزمتان غير أزمتان التغذية والفقر والجهل، أزمتان أعمق من كل ذلك! فهناك أزمتان العبودية، والاستضعاف، والظلم والاستكبار في الأرض، وهناك أزمتان فكرية (انتشار الفكر المادي الملحد) وغيرها من الأزمتان، وهناك أزمتان نفسية. وهذا يستدعي وجوب «تحرك الجميع لمواجهة المادية الملحدة، والشرك العبادي والاستكبار العالمي، لينطلق الإيمان بالدين بشكل عام قويا في ساحة الفكر، ويتحرك المستضعفون في مواقع القوة في مواجهة المستكبرين؛ الأمر الذي قد يتيح للشعوب المستضعفة أن تكتشف في الدين الحركي معنى الحرية والعدالة، فتلتقي بالإيمان به من خلال جهاده السياسي في خط مواجهة للظلم العالمي كله، ليقف المسلم ضد المستكبر حتى لو كان مسلما، ويقف المسيحي ضده حتى لو كان مسيحيا، فذلك هو الذي يمثل اختصار المسافة الطويلة للوصول إلى عقل المستضعف، لأن الكثيرين من الناس يفهمون الإيمان من خلال المشكلة

١- من خلق القرآن، مرجع مذکور، ص: ٢١٢ - ٢١٣.

التي يتخبطون فيها، أكثر مما يفهمونه من خلال المفردات اللاهوتية التي يفكرون فيها، لأن أقرب طريق إلى عقل الإنسان قلبه، كما أن أقرب الطرق إلى القلب قضاياها وحاجاته الطبيعية الملحة في الحياة»<sup>(١)</sup>.

وللإشارة، ففي بريطانيا، يوجد مجلس ممثلي مختلف الأديان في المدن الداخلية يتعاون مع الحكومة في تحليل المشاكل المشتركة، والمبادرة باتخاذ خطوات عملية بشأنها. فمثل هذه المبادرات، تضرب مثالا جيدا على ما يمكن بلوغه من خلال التعاون بين الحضارات وتقديم نماذج للتنمية في هذه المجالات.

فالتعارف الحضاري، إذن، سبيل لتوحيد الجهود، والتفكير المشترك في مستقبل تكاملي للإنسانية، يُمكن من تجاوز ما يُحدِّق بها من مشاكل وأزمات، سواء على مستوى الإنسان نفسه، أو على مستوى الكون.

---

١- في أفاق الحوار الإسلامي المسيحي، دار الملاك، ط١/١٩٩٤، من تقديم الكتاب.

## الخاتمة

في ظل الصراعات والأزمات التي يشهدها العالم، وفي ظل غياب معالم الحالة السواء التي وجب رد الأمور إليها، يتبين أن هذه الرحلة البحثية القاصدة مع مفهومي التصديق والهيمنة تبين مكنونية هذين المفهومين، كما تكشف عن مركزيتها في القرآن الكريم، فيمكن اعتبارهما مصطلحين مفتاحيين للرؤية القرآنية للعالم في شقيه الديني والحضاري.

فمدار التصديق على الموافقة، أي موافقة الكتب السماوية لبعضها البعض فيما جاءت به من أصول الدين، وكذا موافقة الأنبياء لبعضهم البعض فيما جاءوا به من هدى الإسلام والإيمان، وفيما أمروا به من الإبلاغ وتوصيل القول، وفيما أخبروا به من الإنذار والتبشير، كما أن تصديق الرسل لبعضهم البعض يؤكد أن تعاقبهم كان تكامليا كما صور ذلك خاتم النبيئين ﷺ في قوله: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي... الحديث».

وإلى جانب التصديق، يقوم القرآن الكريم بدور الهيمنة، أي الشهادة على تاريخ الرسالات السماوية، فهو الرقيب لما حرف وبدل فيها، وهو المبين والمصحح، وهذه المهمة يضطلع بها القرآن على مدى الزمان في أبعاده الثلاثة؛ الماضي، والحاضر، والمستقبل. ثم إن الهيمنة لا تعني التصحيح فقط، بل تعني أن القرآن الكريم جاء بأصول الدين في صورتها الكاملة، مما يفسر اتصاف القرآن بالكمال والبيان والشهادة والحاكمية.

والقرآن الكريم وهو يصدق ما قبله ويهيمن عليه، يحفظ بذلك للبشرية تراثها الرسالي ويحول دون تحريفه أو تبديله، باعتباره الذكر المحفوظ من لدن رب العالمين. فكل الأمم البائدة منها والحاضرة تجد ذكرها فيه. ولقد اجتهدنا وسعينا في تجلية تجليات التصديق والهيمنة للقرآن الكريم لما بين يديه من الكتاب؛ على مستوى العقيدة، والتشريع، والأخلاق، وقد

يتساءل سائل كيف للقرآن أن يصدق ما قبله في الجانب التشريعي واللّه عز وجل يقول: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ الحق أن اللّه جعل لكل أمة شرعتها ومنهاجها في الحياة، لكن اللّه جعل من التشريعات ما لها خاصية الثبوت والعالمية والصلاح لكل زمان ومكان، من قبيل حقوق الإنسان والتشريعات الاجتماعية وغير ذلك مما ذكرنا في موضعه.

وهذه الأصول المشتركة هي منطلقات موحدة يمكن أن يقوم عليها الحوار الديني، فهي تشكل وحدة دينية تلمم شتات أتباع الرسالات وتقودهم إلى الاعتراف بعضهم ببعض، وتخرجهم من دائرة التعصب والصراع إلى دائرة التفاهم ومعرفة الحق واتباعه.

وحتى إذا لم يؤت سبيل الحوار الديني أكله، فهناك سبيل المشترك الإنساني، الذي يوحد البشرية ويوحد أهدافها الحضارية العامة، لأن هناك أهدافا خاصة بحسب خصوصيات كل شعب وكل أمة على حده، ثقافيا ودينيا، ويقودها إلى التعارف عليها، من أجل أنسنة للحضارة يُحفظ بها للإنسان دوره وكرامته وعدم الهبوط به إلى منزلة الحيوان، ومن أجل ترشيد السلوك الإنساني عبر القيم والأخلاق المتعارف عليها عالميا، سواء تجاه الإنسان أو الحيوان، أو ما يؤثت هذا الكوكب إجمالا، وكذا من أجل الحفاظ على أصل الصلاح في الأرض وعدم إفسادها.

وهذا عمل وجب أن ينهض له علماء الدين، وعلماء الحضارة والتاريخ والإناسة، للعمل جميعا على ترشيد الإنسانية برشد الوحي، فالرسالات السماوية جميعا ما جاءت إلا ليعملها الإنسان في واقع حياته.

وفي ختام هذه الخاتمة، لا أدعي بأني أحطت بهذا الموضوع بما لم يحط به أحد علما! ولكنني أقر بأن بحثي هذا يبقى مجرد محاولة للفوص في ما يكتننه هذان المفهومان (التصديق والهيمنة) من رؤية قرآنية للعالم



في شقيه الديني والحضاري. فما كان من توفيق في هذا البحث فهو من الله عز وجل تقدست أسماؤه، وما كان من تقصير فهو مني.

وحسبي هنا أن أكون قد قدمت تصورا لعله يكون إشارة تلهم الغيورين والمهتمين إلى صرف الجهود نحو هذا الموضوع الذي لا أحسبه إلا بkra، والذي أظنه مخرجا محتملا لكثير من الأزمات والصراعات الإنسانية.

والله من وراء القصد وهو يهدي سواء السبيل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ







- ١- الشهود الحضاري للأمة الوسط في عصر العولمة.  
د. عبد العزيز برغوث. \_\_\_\_\_
- ٢- عينان مطفأتان وقلب بصير (رواية).  
د. عبد الله الطنطاوي. \_\_\_\_\_
- ٣- دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية.  
د. محمد إقبال عروي. \_\_\_\_\_
- ٤- إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية.  
د. الطيب برغوث. \_\_\_\_\_
- ٥- ظلال وارفة (مجموعة قصصية) .  
د. سعاد الناصر (أم سلمى). \_\_\_\_\_
- ٦- قراءات معرفية في الفكر الأصولي.  
د. مصطفى قطب سانو. \_\_\_\_\_
- ٧- من قضايا الإسلام والإعلام بالغرب.  
د. عبد الكريم بوفرة. \_\_\_\_\_
- ٨- الخط العربي وحدود المصطلح الفني.  
د. إدهام محمد حنش. \_\_\_\_\_
- ٩- الاختيار الفقهي وإشكالية تجديد الفقه الإسلامي.  
د. محمود النجيري. \_\_\_\_\_

- ١٠- ملامح تطبيقية في منهج الإسلام الحضاري. \_\_\_\_\_  
د. محمد كمال حسن.
- ١١- العمران والبنيان في منظور الإسلام. \_\_\_\_\_  
د. يحيى وزيري.
- ١٢- تأمل واعتبار: قراءة في حكايات أندلسية. \_\_\_\_\_  
د. عبد الرحمن الحجى.
- ١٣- ومنها تتفجر الأنهار (ديوان شعر). \_\_\_\_\_  
الشاعرة أمينة المريني.
- ١٤- الطريق... من هنا. \_\_\_\_\_  
الشيخ محمد الغزالي
- ١٥- خطاب الحداثة: قراءة نقدية. \_\_\_\_\_  
د. حميد سمير
- ١٦- العودة إلى الصفصاف (مجموعة قصصية لليافعين). \_\_\_\_\_  
أ. فريد محمد معوض
- ١٧- ارتسامات في بناء الذات. \_\_\_\_\_  
د. محمد بن إبراهيم الحمد
- ١٨- هو وهي: قصة الرجل والمرأة في القرآن الكريم. \_\_\_\_\_  
د. عودة خليل أبو عودة

١٩- التصرفات المالية للمرأة في الفقه الإسلامي.

\_\_\_\_\_ د. ثرية أقصري

٢٠- إشكالية تأصيل الرؤية الإسلامية في النقد والإبداع.

\_\_\_\_\_ د. عمر أحمد بوقرورة

٢١- ملامح الرؤية الوسطية في المنهج الفقهي.

\_\_\_\_\_ د. أبو أمامة نوار بن الشلي

٢٢- أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة.

\_\_\_\_\_ د. حلمي محمد القاعود

٢٣- جسور التواصل الحضاري بين العالم الإسلامي واليابان.

\_\_\_\_\_ أ. د. سمير عبد الحميد نوح

٢٤- الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية.

\_\_\_\_\_ د. أحمد الريسوني

٢٥- المرتكزات البيانية في فهم النصوص الشرعية.

\_\_\_\_\_ د. نجم الدين قادر كريم الزنكي

٢٦- معالم منهجية في تأصيل مفهوم الأدب الإسلامي.

\_\_\_\_\_ د. حسن الأمراني

\_\_\_\_\_ د. محمد إقبال عروي

٢٧- إمام الحكمة (رواية).

\_\_\_\_\_ الروائي/ عبد الباقي يوسف

٢٨- بناء اقتصاديات الأسرة على قيم الاقتصاد الإسلامي.

أ. د. عبد الحميد محمود البعلي

٢٩- إنما أنت... بلسم (ديوان شعر).

الشاعر محمود مفلح

٣٠- نظرية العقد في الشريعة الإسلامية.

د. محمد الحبيب التجكاني

٣١- محمد ﷺ ملهم الشعراء.

أ. طلال العامر

٣٢- نحو تربية مالية أسرية راشدة.

د. أشرف محمد دوابه

٣٣- جماليات تصوير الحركة في القرآن الكريم .

د. حكمت صالح

٣٤- الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية.

د. عبد الرحمن العضاوي

٣٥- السنابل... (ديوان شعر).

أ. محيي الدين عطية

٣٦- نظرات في أصول الفقه.

د. أحمد محمد كنعان

٣٧- القراءات المفسرة ودورها في توجيه معاني الآيات القرآنية.

د. عبد الهادي دحاني

٣٨- شعر أبي طالب في نصرته النبي ﷺ.

د. محمد عبد الحميد سالم

٣٩- أثر اللغة في الاستنباطات الشرعية.

د. حمدي بخيت عمران

٤٠- رؤية نقدية في أزمة الأموال غير الحقيقية.

أ.د. موسى العرباني

د. ناصر يوسف

٤١- مرافىء اليقين (ديوان شعر).

الشاعر ريس الضيل

٤٢- مسائل في علوم القرآن.

د. عبد الغفور مصطفى جعفر

٤٣- التأصيل الشرعي للتعامل مع غير المسلمين.

د. مصطفى بن حمزة

٤٤- في مدارج الحكمة (ديوان شعر).

الشاعر وحيد الدهشان



٤٥- أحاديث فضائل سور القرآن: دراسة نقدية حديثة.

د. فاطمة خديد

٤٦- في ميزان الإسلام.

د. عبد الحليم عويس

٤٧- النظر المصلحي عند الأصوليين.

د. مصطفى قرطاح

٤٨- دراسات في الأدب الإسلامي.

د. جابر قميحة

٤٩- القيم الروحية في الإسلام.

د. محمد حلمي عبد الوهاب

٥٠- تلاميذ النبوة (ديوان شعر).

الشاعر عبد الرحمن العشماوي

٥١- أسماء السور ودورها في صناعة النهضة الجامعة.

د. فؤاد البنا

٥٢- الأسرة بين العدل والفضل.

د. فريد شكري

٥٣- هي القدس... (ديوان شعر).

الشاعرة: نبيلة الخطيب

٥٤- مسار العمارة وآفاق التجديد.

م. فالح بن حسن المطيري

٥٥- رسالة في الوعظ والإرشاد وطرقهما.

الشيخ محمد عبد العظيم الزُّقاني

٥٦- مقاصد الأحكام الفقهية.

د. وصفي عاشور أبو زيد

٥٧- الوسطية في منهج الأدب الإسلامي.

د. وليد إبراهيم القصاب

٥٨- المدخل المعرفي واللغوي للقرآن الكريم.

د. خديجة إيكير

٥٩- أحاديث الشعر والشعراء.

د. الحسين زروق

٦٠- من أدب الوصايا.

أ. زهير محمود حموي

٦١- سنن التداول ومآلات الحضارة.

د. محمد هيشور

٦٢- نظام العدالة الإسلامية في نموذج الخلافة الراشدة.

د. خليل عبد المنعم خليل مرعي

٦٣- التراث العمراني للمدينة الإسلامية.

د. خالد عزب \_\_\_\_\_

٦٤- فراشات مكة... دعوها تحلق.. (رواية).

الروائية/ زبيدة هرماس \_\_\_\_\_

٦٥- مباحث في فقه لغة القرآن الكريم.

د. خالد فهمي \_\_\_\_\_

د. أشرف أحمد حافظ \_\_\_\_\_

٦٦- محمود محمد شاكر: دراسة في حياته وشعره.

د. أماني حاتم مجدي بسيسو \_\_\_\_\_

٦٧- بوح السالكين (ديوان شعر).

الشاعر طلعت المغربي \_\_\_\_\_

٦٨- وظيفية مقاصد الشريعة.

د. محمد المنتار \_\_\_\_\_

٦٩- علم الأدب الاسلامي.

د. إسماعيل إبراهيم المشهداني \_\_\_\_\_

٧٠- الكتاب وصناعة التأليف عند الجاحظ.

د. عباس أرحيلة \_\_\_\_\_

٧١- وسائلية الفقه وأصوله لتحقيق مقاصد الشريعة.

د. محمد أحمد القياتي محمد \_\_\_\_\_

٧٢- التكامل المعرفي بين العلوم.

د. الحسان شهيد \_\_\_\_\_

٧٣- الطفولة المبكرة الخصائص والمشكلات.

د. وفقى حامد أبو علي \_\_\_\_\_

٧٤- أنا الإنسان (ديوان شعر).

الشاعر يوسف أبو القاسم الشريف \_\_\_\_\_

٧٥- مسار التعريف بالإسلام في اللغات الأجنبية.

د. حسن عزوزي \_\_\_\_\_

٧٦- أدب الطفل المسلم.. خصوصية التخطيط والإبداع.

د. أحمد مبارك سالم \_\_\_\_\_

٧٧- التغيير بالقراءة.

د. أحمد عيساوي \_\_\_\_\_

٧٨- ثقافة السلام بين التأصيل والتحصيل.

د. محمد الناصري \_\_\_\_\_

٧٩- ويزهر السعد (ديوان شعر).

الشاعر محمد توكلنا \_\_\_\_\_

٨٠- فقه البيان النبوي.

أ. محمد بن داود سماروه \_\_\_\_\_

٨١- المقاصد الشرعية للوقف الإسلامي.

د. الحسن تركوي

٨٢- الحوار في الإسلام منهج وثقافة.

أ. د. ياسر أحمد الشمالي

٨٣- أسس النظام الاجتماعي في الإسلام.

د. عبد الحميد عيد عوض

٨٤- حروف الإبحار (ديوان شعر).

الشاعر عصام الغزالي

٨٥- معالم منهجية في تجديد خطاب الفقه وأصوله.

د. مسعود صبري

٨٦- قبسات من حضارة التوحيد والرحمة.

أ. ممدوح الشيخ

٨٧- لقاء قريب (رواية).

الروائية مياسة علي عبدة النخلاني

٨٨- مقاصد الشريعة بين البسط والقبض.

د. محمد بولوز

٨٩- مدائن الصحو (ديوان شعر).

الشاعر محيي الدين صالح

٩٠- الفن والجمال من النزوع الشكلاني إلى التأصيل الرسالي.

د. عبد الجبار البودالي \_\_\_\_\_

٩١- دوائر الحياة (مجموعة قصصية).

أ. ماجدة شحاتة \_\_\_\_\_

٩٢- علم أصول الفقه ودوره في خدمة الدعوة.

د. عبد الرؤوف مفضى خرابشة \_\_\_\_\_

٩٣- مواسم الخصب (ديوان شعر).

الشاعر محمد يونس \_\_\_\_\_

٩٤- مفهوم التصديق والهيمنة في القرآن الكريم.

د. نعيمة لبدوي \_\_\_\_\_

نهر متعدد.. متجدد

## هذا الكتاب

البحث في محددات كتاب الله عز وجل «القرآن المجيد» لا يمكن إلا من داخله، وذلك حتى في علاقته بغيره، لسبب مسلم به. عند المؤمنين به والمنصفين لحقيقته. وهو أنه النص الوحيد المحفوظ من التحريف والتبديل...

ومن المحددات القرآنية، ما يحدد علاقته بالذي بين يديه من الكتاب أي ما سلف من الرسائل، وكذا علاقة حاملي هذه الرسائل ومبلغها (رسل الله وأنبيائه) فيما بينهم، ومن ثمة علاقة أتباع هذه الرسائل فيما بينهم عبر الزمان والمكان وما يوحدهم وما يفرقهم وفيما يختلفون. ذلك هو شأن مفهومي التصديق والهيمنة المبيين لهاية هذه العلاقات وتجلياتها...



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

إدارة الثقافة الإسلامية

[www.islam.gov.kw/thaqafa](http://www.islam.gov.kw/thaqafa)